هكذا هي ....

" راوية "

فخري فايد

هكذا هى ...

فخرى فايد

الفصل الأول

البحث عن طريق الخلاص

ـــ ١ ـــ

- لقد وهبنى الله ما كنت محرومة منه ، فحمدا لله ..حمدا لله .. .

كانت الأم رغم الآلام التى قاست منها تردد كلماتها فى وهن .. بينما يشرق وجهها بفرحة غامرة وهى تحتضن بنظراتها الجسد الصغير ، فى حين أخذ أطفالها يلعبون حول فراشها غير مدركين ما يدور حولهم .

تحسست أصابع الوليدة ، تلمست مكان القلب ، حملقت فى العينين ، داعبت الفم ، فلما اطمأنت زز راحت تنقل نظراتها بينها وبين اخواتها ، تقارن بينها وبينهم ، تستعيد الذكريات : لحظة ميلاد كل منهم .. لتدرك فى النهاية أنها لم تفرح لميلاد أحدهم مثل فرحتها بابنتها .. !! .

إنها جميلة ، تقاطيعها صغيرة ، بشرتها بيضاء .. لكن ليست فى مثل بياض بشرة الأم ، فهى ق سقيت من سمار الأب ..

تسارع وجيب فؤادها . تذكرته . أحمر وجهها ، رمقت وليدتها فى خجل وتبسمت ونادت :

- يا أولاد .. أسرعوا الى أبيكم .. قولوا له أحضر حالا فقد جاءتك أمنا بأخت لنا .. أقول لكم : تعالوا أولا .. اصعدوا الى الفراش ، التفوا حولها .. هكذا حذارى .. اقتربوا قليلا . حسنا ، انظروا كم هى جميلة اختكم .. ليقبلها كل منكم ، قبلوها بعطف ، هى بعد ضعيفة ، عليكم أن تحبوها ، انها ابنتى الوحيدة اشعر انى لن

ألد بعدها .. وحيدتى هى ، اهن كنتم تحبون امكم .. فأحبوها ، فستكون ينبوعا يفيض عليكم بالحنان من بعدى . هل تدركون ما أعنى ؟ . والآن هيا .. اذهبوا معا لتعودوا بأبيكم .

أسرع الأطفال يقفزون متصايحين من فوق الفراش واندفعوا مسرعين خارج الدار ، ليسود هدوء مفاجئ يثير القلق فى نفس الأم فتحاول أن تهرب منه بالنظر الى وليدتها ، لكن نظراتها سرعان ما تغيم بالحزن : ترى هل سيحبها زوجى ؟ .. لقد كان وجهه يكفهر كلما عبرت له عن امنيتى فى أن أنجب طفلة ، ولكن من المستحيل ألا يحبها ، إنها ابنته ، أمنيتى التى طالما رغبتها ، وهو يحبنى . اذن فلا بد أنه سيحبها .

ـ ٢ ـ

- حمدا لله على السلامة يا أم الأولاد . بماذا رزقت ؟ . الأولاد يقولون انها طفلة . فهل هذا حقا؟..

- نعم .. طفلة هى .. أخيرا وهبنى الله ما تمنيت .. انظر كم هى جميلة فاتنة ، أجمل بنات الوجود .

كانت تتحدث الى زوجها وهى تنظر الى وليدتها ، لكنها انتهت من الكلام ، وكانت عليها أن تنظر اليه .

حاولت أن تستطرد ، تقول له .. تعال .. قبلها ، لكن الكلمات جمدت على شفتيها لما شاهدت على وجهه من تجهم وكآبة جف لعابها . كادت الفرحة تموت فى قلبها .

.. الصمت ثقيل . المواجهة قدر . لابد من المصارحة .

- أتراك حزنت لفرحى ؟..

هز رأسه وهو يحاول أن يبدو مبتسما ، وقال مؤكدا :

- .. أبدا .. فرحك .. فرحى .
- اذن فاختر لها اسما .
- ليكن اسمها من الواقع
- واقع وجودها ؟
- ليكن اسمها وجيدة .

- وجيدة .. من الوجود والوجدان ..
- اخترته مصادفة ، رغم أنى كنت عازما أن أترك لك أمر تسميتها ، فليس أحب الى الأم من ابنتها .
- هكذا أنتم يا رجال .. تظلموننا دائما باتهامكم لنا بالتحيز .
- التحيز يصرخ فى عينيك .
- بل هى فرحة من كان محروما ونال ، فلو كنت رزقت بدلا من الصبيان ببنات ثم رزقت بعدهن بطفل لفرحت به فرحتى بوجيدة .
- بل لكانت فرحتى أنا أشد .
- هكذا تعترف ببساطة بأن الرجال هم المتحيزون لجنسهم .

قهقه الزوج ضاحكا ، ثم مال فقبل جبهتها قائلا :

- أنت .. أنت دائما ، لا تفوتك فائتة .

ـ ٣ ـ

ذبلت وردة الإبتسام بعد خروج الزوج . ظلت فى ذهن الأم صورته وهو متجهم مكتئب لحظة أن صدمته الحقيقة ..!!

: هل تراه يكره البنات ؟

: ولماذا يكرههن ؟

: لعله يكرههن لأنه يكرهك ؟

: لكنه يحبنى .

: ولماذا لا يكون حبه تظاهرا .. خداعا؟

: وما الذى يجبره على هذا ؟

: غناك .. ثراؤك ، رغبته فى أن يعيش عيشة هانئة .. هل نسيت أنك مالكة الدار والغيط والحظيرة ..

: لم أنس .

: وهل نسيت أنه تزوجك وهو لا يملك غير ملبسه ؟

: وكرامته أيضا ، كريم هو على نفسه .

: وعليك ؟ ..

وعلى أيضا ، فهو يصون مالى أكثر مما كنت أستطيع أن أصونه .

: هو يأخذ ما يشاء .

: كذب .. فهو لا يأخذ سوى ما يقيم أوده رغم كونه حرا يتصرف فيما أملك كما يتراءى له .

: إذن .. فلماذا يكرهها ؟

: لا استطيع أن أجزم بأنه يكرهها .

: لعله يكره فيها ماضيك .

: ماض ناصع .

: وما كان يقال عنك . ما أشيع حولك .. أنسيته ؟..

: نعم نسيته ، لأن زوجى أراد أن أنساه .. فلقد ألقم أفواه النمامين حجرا .

: لعله كان يدافع عن زواجه منك رغم اقتناعه بما يقال ؟

: كان باستطاعته أن يأنف كما أنف غيره الزواج منى .

: اذن .. فلماذا يكره ابنتك ؟..

: من الظلم أن نصمه بكرهها ، لفظ الكره بغيض ، لا أتصور أن هناك أبا يستطيع أو أما تستطيع ذلك لأى من الأبناء .

: قد يفضلون بعضهم على بعض .

: هذا جائز ، لكنهما لا يكرهان .

: اذن .. لعله يخاف عليها ؟

: يخاف عليها ؟

: نعم .. يخاف عليها أن تقاسى ما قاسيت .

ـ ٤ ـ

الليل ..

الوحدة ..

آخر كلمات أبيها :

- الدار والغيط والحظيرة ثمرة وجودى ، إن تبدد شئ منها ضعت بلا ذكرى . عليك أن تفتحى الدار وترعى الغيط وتسهرى على الحظيرة .. كونى صلبة كأبيك .
كثيرون قالوا لى :
ياشيخ عبد القوى .. سيضيع كل شئ مع نبأ وفاتك . فلقد انجبت الضعف لكن نظرتى تختلف عنهم . فأنا أرى أنى انجبت من هى أقوى عزيمة من الرجال .
فابق على كل شئ ما دامت بك رغبة فى أن تذكرينى .
وبقيت ..

ورحل الأب ..

واختلف الأعمام ..

وسار كل فى طريق ..

وصار البيت الكبير ضخما .. موحشا ، لا يضم أحدا غيرها ، فراحت تصارع الخوف .. والزمن .. والشائعات التى انطلقت تنسج عشرات الحكايات عن عشاقها ، وعن باب الدار الذى يفتح فى غفلة من أعين الحراس ليلجه عاشق .

الباب موصد ..

الحيرة تأكلها ..

الشائعات تدور .. وتزداد .. حتى تكاد لكثرة ما سمعت لا ترى الحقيقة . واختلط عليها واقعها بخيال مروجى الإشاعات .

: ومن أدراك لعلك تتصرفين دون وعى ؟

: مريضة ؟

: الله وحده يعلم .

: لكنى أوصد كل الأبواب بيدى .

: ثم تقومين ليلا لتعيدى فتحها .

: محال ..

: ليس هناك محال ،

: اذن فلا بد أن أعرف كل شئ .

: اسألى . وراقبى .

: سأسأل وأراقب نفسى . بل سأربط جسدى الى الفراش .

رغم هذا كله لم تكف الألسن ، ظلت تلوك سيرتها ، وكان عليها أن تحسم الأمر:

- أبى لم يمت . . لتعد الأمور الى سيرتها الأولى : الدوار يفتح للزوار . الطعام للغريب واجب . كساء الفقير ضرورة . ويدى ممدودة لكل صديق .

.. وخرجت من محنتها .

وهكذا يجب أن تكون وحيدة .

الأيام تمر ..

سريعة هى دورة الشمس ..

شروق فغروب ، ويمر يوم ..

وتتكرر الدورة مع بداية يوم جديد ..

وتتابع الأيام لتصير شهورا فسنين .

والأم لا تقدم لوجيدة بنا سوى الحب الدافق . وعيناها لا تريدان أن تعترفا بما يحدث لوجيدة :

جسد أحمر فى لفافة ..

ساقان تنفضان اللفافة ..

ساقان تقويان فتحملان الجسد الرقيق ..

جسد ممشوق يتمرد فى كل عام على ملابس العام السابق .. بروز فى الصدر .. يزداد ليصير نهدا يزين القوام الجميل ..

وجه تحددت ملامحه : أنف دقيق ، عيون سوداء كبيرة تزينها رموش طويلة داكنة السواد تعلوها حواجب رسمت بعناية . فوقها جبهة وضاءة يتوجها شعر ينساب حريريا ليحدد الذقن والشفتين المستديرتين الصغيرتين الممتلئتين .

.. ولكن إذا كانت العيون تستطيع أن تسدل ستارا من ذكريات الماضى على ما تراه فى الحاضر فتخدعها الرؤية ، فهل تستطيع أذنا الأم أن تنكر ما سمعته من الخادمة المنزعجة:

- سيدتى .. هناك شبان يحومون حول الدار كل مساء لرؤية الست وجيدة .
- لرؤية وجيدة ..؟
- يودون مغازلتها ..
- يودون مغزلة وجيدة ؟؟ !
- نعم ياسيدتى .
- وهل لحظ سيدك شيئا من هذا ؟

ماكنت أدرك ما حدث أو ألحظه . لولا أن سمعت سيدى يصرخ فيهم الليلة الماضية مهددا بأنه سيفرغ رصاص مسدسه فى احشائهم أن بدت ظلالهم بالقرب من الدار .

ابتلعت الأم الكلمات ، صرفت الخادمة لاستدعاء وجيدة ، وقلبها يخفق بشدة وهى حيرى للمفاجأة !!

: الآن فقد كبرت وجيدة .

: صارت فتاة يانعة .

: يتقاتل من أجلها الفتيان .

:ويتكرر الماضى ..

: وتثور الشائعات .

: قد تضحى حقائق ؟

: محال أن أنجب غانية . ستكون مثلى رغم ما يقال . عذراء حتى يؤذن لها بحليلها . الحرائر لايلدن الا الحرائر ..

: ولكن الزمن والإغراء .

: سأؤمنها ضد الزمن والإغراء ، سأورثها كل ما املك : الدار والحظيرة والغيط .

ترددت دقات خفيفة على الباب ، ثم انفرج عن وجه وجيدة

- أمى . أتراك بخير ؟.
- حمدا لله .. تعالى يا وجيدة . اجلسى بجانبى .

ارتمت وجيدة على الدكة بقرب الأم ، ثم اسندت رأسها فوق كتفها وتنهدت بارتياح :

- الحمد لله . كدت أموت جزعا عليك حينما نادتنى الخادمة .

أغمضت عينيها ، فبدا وجهها بريئا .. بريئا كوجوه الملائكة ، همست الأم لنفسها.

: ياحبيبتى كم كنت لهفى على ..

: أتراك ستنسين ؟..

: حقا .. لا بد أن أفاتحها .

نحت الأم رأس وجيدة .. همست ونبرة غضب تبدو فى صوتها بالرغم عنها :

- ما هذا الذى تناهى الى سمعى يا وجيدة ؟
- أى شئ تقصدين يا أمى ؟ .. لعل الخادمة العجوز انهت اليك سقوط اناء الزهور من يدى وتحطمه .
- ليس هذا بالأمر المهم الذى استدعيك من أجله .. وإن كان شيئا يؤسف له .
- اذن علها قالت لك كيف تركت الطعام فوق الموقد ورحت اناجى عصافيرى حتى تفحم الطعام دون أن أنتبه .
- ليس هذا ايضا .
- اذن.. فأنت غاضبة يا أماه لأنى لم أقبلك ثلاثا قبل ذهابى للنوم لليلة أمس .
- التقت العينان : أتراك تصطنعين السذاجة يا ابنتى ؟

لكن العينين بريئتان . لا تطرفان بخوف ولا تنمان عن خبث . تنهدت الأم وقد ضاع كل أثرللشك .

- لقد غفرت لك يا ابنتى ، وسأقبلك أنا ثلاثا ..

: وبعد ما العمل ؟

: هل تدعينها هكذا بجسد انثى وعقل ملاك ؟

: أخاف أن أصارحها فأفتح عينيها على أشياء أود ألا تعرفها .

: أن تعرف ما حولها خير من أن تجهله .

: قد تدفعها معرفة السمع الى الرغبة فى معرفة الحس .

: ألم تقولى أن الحرائر لا يلدن الا الحرائر ؟

: هذا حق .

: اذن فمعرفتها بحقيقة وجودها كأنثى ستحصنها وتصونها .

: ولكن على أن أتأكد أولا إن كانت تعرف بأمر الشبان ، أو لا تعرف ، ومن معرفتى يكون بدء الكلام ..

نهضت الأم الى النافذة وقدانتابتها الهموم والحيرة ، شعرت بأنها تفعل شيئا شاذا لم تفعله منذ تزوجت ، أن تقف خلف النافذة لتنظر الى الطريق الذى يبدو بعيدا ، فالدار كبيرة ، تنقسم الى قسمين . مبنى ضخم حيث يسكنون ، تحيط بالمبنى مجموعة من الحجرات المبنية بالطين يسكنها العاملون ويستخدم بعضها كمخازن وقت جنى المحاصيل . لذا بدأ الطريق بعيدا يمتد فاصلا بين الدار والغيط من جانب ، وبين الدار والحظيرة من جانب آخر ، أما فى الجانب الثالث فتبدو الترعة الضخمة التى تروى أرض القرية ، وفى الجانب الرابع ترتفع مبانى القرية وتتدرج الى ارض شاصعة جدباء تشغلها مبان قديمة يقال أن أصحابها هجروها منذ أيام الجدود ، لذا كان الناس يسمونها الخرابة ، بعدها يشمخ مقام الشيخ الرفاعى :

- مدد يارفاعى ، وجبت زيارتك ، فلعلك تفك كربتى .

ـ ٧ ـ

فى المساء خرج موكب من الدار : خفير يحمل مصباحا يتبعه خفيران مسلحان ، فأمرأتان . ترتديان ملابس سوداء لا تكشف عن شئ من تفاصيلهما تحيط بهما امرأتان عن يمين وامرأتان عن يسار ، بينما يسير فى الخلف ثلاثة خفراء .

اتجه الموكب فى سيره الحثيث الى شارع القرية الكبير ، كان الشارع صامتا ، مظلما ، موحشا الا من الموكب المسرع بلا صوت حتى توقف امام باب مبنى صغير ، كان الباب موصدا ، لكن سرعان ما هرول احد الخفراء ليدق الباب فينفتح عن امرأة تكافح النعاس وبيدها مفتاح كبير .

تقدمت المرأة التى طار من عينيها النعاس ودفعت بالمفتاح فى ثقب الباب فانفتح لتندفع منه المرأة الى الداخل تتبعها امرأتان من الركب بأيديهما شموع اضاءتاها . فظهر ضريح مكسو بقماش أخضر : تمتمت حارسة الضريح :

- ماشاء الله يا سيدى الرفاعى . تفضلى يا ام القرية ، فو الله لا يرى الضريح نورا الا بقدومك .

دخلت المرأتان وتبعتهما بقية النسوة ثم اغلق الباب عليهن وظل الخفراء فى الخارج.

تمتمت الأم لوجيدة وهى تزيح النقاب عن وجهها :

- اخلعى نعليك وارفعى النقاب ، فنحن فى حضرة ولى الله وبركة القرية .

ثم مالت على أذن خادمتها العجوز وهمست :

- وجيدة مستعدة بالطبع للصلاة

- لقد حسبت حساب كل شئ .

- رفعت الأم صوتها وهمست فى خشوع .

- لنقرأ الفاتحة لصاحب المقام .

كان وجه وجيدة مصفرا رهبة من الموقف ، فهى لم تعتد مثل تلك الزيارة ، بل هى المرة الأولى التى تزور فيها مقاما ونقرأ الفاتحة جماعة . وقد لحظت الأم كل ذلك من خلال طرف عينها ، فهى ترقب ابنتها فى كل حركة وايماءة . وما أن انتهت النسوة من قراءة الفاتحة حتى قالت الأم :

- لنصل العشاء جماعة .

اجفلت وجيدة ، زادت الصفرة التى تغلف وجهها لكن يد الأم قربتا منها وهمست لها :

- افعلى مثلما سأفعل ، يا لثقل حسابى ، حتى الصلاة لا تصلينها ..

.. ومع استغراق الأم فى الصلاة شعرت بأن عبئا ثقيلا ينزاح عن صدرها .. وحين انتهت من الصلاة ، قالت وهى تتهيأ للإنصراف :

- ستكون لنا زيارة للمقام الطاهر كل اسبوع ، وليظل المقام منذ الساعة مضاء ليل نهار.

وتحرك الموكب يهرول عائدا عبر الشارع المغبش بضوء القمر الذى بدأ يكتشف طريقه نحو كبد السماء .

- بصفاء الروح وطهارة الجسد تتكشف الحقائق .
- هذا خير لك من الحديث المكشوف يا سيدتى .
- كنت واقعة فى حرج كبير .
- ثم ..
- أنقذنى الإلهام بزيارة مقام الطاهر . فلا أتصور أنه من السهولة أن تحدث أم ابنتها فى أمور الحب .
- ولو أنك كنت ثائرة لحظة اخبرتك بما شاهده سيدى .
- لحظتها كنت على استعداد لأن أتحدث اليها فى أى شئ .
- ثم صدمتك براءتها .
- فلم يعد أمامى للحديث مجال .
- الإيمان والتدين هما طريق الخلاص مما يحيط بنا من انحلال .
- ولكن هذالا يصرفنا عن تفهم حقيقة كياننا ..
- استطيع أن أوضح لسيدتى وجيدة ، لو سمحت يا سيدتى بذلك .

ـ ٩ ـ

نظرت الأم الى الخادمة فارتعد جسمها بشدة ، فلقد ارتدت فدأة الى ماض قديم ، لتدا نفسها نائمة فى الفراش ، حجرتها مغلقة . النوم يداعب دجفونها . بجانب الفراش جلست خادمتها العجوز كعادتها . تحكى لها عن الشاطر حسن وست الحسن ، وعلى غير العادة لم تتوقف عند .. وتزوجها وعاشا فى تبات ونبات وانجبا صبيانا وبنات .. بل نظرت العجوز اليها نظرة غريبة واستطردت تصف عالما غريبا ، لم تتجاوب له مخيلتها وإن لم ترفضه ، بل لقد احمر وجهها ولم تستطع أن تستفسر عن معنى بعض الألفاظ الغريبة التى تهدج لها صوت العجوز .

مضت الليلة ، وتغيرت حكايات العجوز ، صارت لا تقص الا عن العشاق ، ثم تحولت تحكى قصص مغامراتها هى أيام ان كانت صبية ، مع زوجها ، مع خدم القصر ، مع سائس الخيل .

فى الليلة الأخيرة اقتربت الخادمة العجوز من الفراش بوجهها المجعد وهمست :

- لماذا لا تهتمين بمحبيك ياسيدتى ؟ .. انهم شبان كالورد يدورون طوال الليل حول القصر يتمنون نظرة منك . بينهم لمحت شابا فى جمال العذراء وفتوة الأسد . يده تمنح بسحاء ، أتودين أن ترينه يا سيدتى ؟ استطيع أن أتسلل به داخل القصر . هل تودين أن أجئ به الى حجرتك ؟ .. اننى استطيع هذا . لن يشعر احد . ولن

يعلم أحد ، انه اجمل من الشاطرحسن . كما أنك أجمل من ست الحسن . هه ما رأيك يا ست الحسن ؟

واقتربت العجوز بوجهها أكثر .. وأكثر ومدت يدها وقد تخشبت اصابعها فبدت وسط ظلمة الحجرة كأصابع الشيطان لحظتها صرخت دون وعى بكل خوفها :

- النجدة .. النجدة .. الشيطانة .. الشيطانة .

بينما ظلت الخادمة العجوز تردد وقد اذهلتها الصرخة :

- هل أجئ به ؟

.. الى أن حملتها الأيدى بعيدا .. ولا تدرى إلى أين ؟ .

لكنها اختفت الى الأبد من حياتها ، وان ظلت حكاياتها تؤرقها ..

- سيدتى .. هل تأذنين لى بأن أكشف لسيدتى وجيدة ما يعف لسانك عن الحديث فيه؟

أفاقت الأم من شرودها على سؤال الخادمة . هزت رأسها كأنما تفيق من كابوس . وقالت زاجرة :

- لا .. فراش وجيدة ينقل الى حجرتى منذ ساعة ..

- لقد نقلت فراش وجيدة الى حجرتى .

- خيرا فعلت .

- أنت راض الآن .

- هذا ما كنت اتمناه منذ كبرت ابنتنا .

- ولماذا لم تقل لى ؟

- كنت أفضل دائما أن أترك لك حرية تربيتها فأنت أدرى بظروفها منى ، تكفينى مشكلات الأولاد . ثم هى ابنتك كما أنها ابنتى .

- لكم أنت صبور كريم .

- بل هو العقل والقلب يحكماننى . ودائما العقل يتغلب حتى لو تمزق الفؤاد .

- هناك ما اريد أن آخذ رأيك فيه ؟؟

- ... ...

- أود أن أطمئن ألى مستقبل وجيدة .. أريد أن أؤمن مستقبلها . أن أجعلها فوق اغراءات المادة .

- ورثيها ما تملكين .

اصفر وجهها . ارتبكت . كأنه يقرأ أفكارها . صمتت لحظة ثم قالت :

من بعدك ترث الدار والحظيرة والأرض ، الأولاد يستطيعون الصمود وستأخذهم فتيات الى دور بعيدة عنا .

- كلامك حق لكن ..

- ماذا ؟

- لترث وجيدة من بعدك أنت . حقا الأعمار بيد الله . لكنى أخاف أن أضعف لو ملكت فأورث الأولاد رغم اقتناعى بأنه لا يرجى من ورائهم خير بعد رحيلى . غدا ستكون الوصية جاهزة الدار والغيط والحظيرة من بعدك لابنتنا وجيدة . أما أنا فلى كل شئ ما دا صانكم الله لى .

بكت الأم ، سالت دموعها فى حرقة ، ارتمت على يدى الأب تتعلق بهما وتقبلهما فى عرفان .

- ١١ -

فى القرية لا يخفى سر ، كل ما يحدث بين اثنين يشاع ، فما بالكم والأمر قد حدث امام مأذون القرية وبشهادة الشهود ؟ ؟

بالطبع عرفت القرية صغيرها وكبيرها بأمر الوصية ، وكيف صارت وجيدة مالكة كل شئ ودهش الناس للخبر ، وأن هز الحكماء رؤوسهم وقالوا :

- انها مالكة كل شئ منذ ولدت .

قالت الأم وكأنها تشهد الحضور .

- إياك أن تعصى أبكا يا وجيدة . لا صواب غير رأيه ، ولا أمان الا فى رضاه ، واياك وجفوة اخوتك .. هم صلبك ، وحبى لك من حبك لهم ، ورضائى عنك من رضا الناس عنك ، من يعمل عملا يؤجر عنه ، وليكن الجزء بقدر العمل ، اذا كرهت عاطفتك ضرورة القسوة على العصاة من الأبناء فدعى عقلك ينفذها .

فهى اصلاح لمن يضل السبيل ، اما شرفك فهو شرفهم جميعا ، شرف كل هؤلاء.

أشارت الأم الى أهل القرية الذين سرى بينهم الخبر ، فجاءوا كعائتهم يشاركون أهل الدار ، وأحاطوا بالبناء فى طوابير تمتد .. وتمتد لتخفى كل شئ ولا تجعل على امتداد البصر شيئا يرى غير البشر ، مما جعل وجيدة ترتعد وهى تهتف :

- اقسم بالله أنى سأنفذ وصيتك يا أمى وأنى سأصونهم قدر صونهم لى .

دمدمت الجموع مؤيدة وصا ح فلاح عجوز جلس فى الصف الأول :

- نصونك بدمائنا ياست وجيدة .

: هتفت الجموع لوجيدة .

: وكاد الجميع فى لحظة أن ينسوك .

: هكذا الدنيا ، تحب دائما أن تجدد شبابها .

: وقد ارتجفت ، وان ظل بالى مشغولا .

: لم ؟

: أين لها بمن هو مثل زوجى ؟

: كثيرون .

: بل قلة نادرة أولئك الذين يبذلون بصدق عن عقيدة وإيمان .

: إذن فعليها أن تنتقى .

: وهذا ما أخافه فقد لا تحسن الإختيار .

: ممكن جدا ..

: آه يا وجيدة ، يالشقاءك من بعد أبيك .

: وأنت ؟

: أشعر أننى قد أديت رسالتى .

: وسط كل هذه الأفراح تتحدثين عن الرحيل .

: وسط الأفراح ولدت ، ووسط الأفراح أرسل وفكرى على وجيدة مشغول ، فإلى أين .. ؟ .. وما المصير ..؟ آه يا وجيدتى فهفى أنا عليك من الأيام ..

الفصل الثانى

سر الرجل الذى يقسو

لم يشعر بالوحدة كما يشعر بها الآن ، القرية أصبحت قاحلة ، النباتات فى الحقل جفت ، المياه فى الترعة ابتلعتها الشقوق العطشى ، الطرقات خاوية ، الدور صامتة ، الحيوانات فى الحظيرة كفت عن الحركة .. فقط هى توك طعامها فى صمت ، والدار تبدو كقبر لا يشغله سوى سواد قاتم . حتى عقله صار كصفحة سوداء : لا خطوط ، لا صور ، لا ذكريات ، لا شئ .. لا شىء ، الأمل الوحيد ذهب .. من أجلها كان يعيش .. والآن من أجل من يعيش ؟ .. دنياه رحلت عنه .

دموعه تنساب على خديه ، تتخلل شعيرات ذقنه التى تسلل اليها الشيب . نشيجه يعلو رغم أنه حاول مرارا أن يتمالك نفسه حتى لا تسمعه وجيدة ، ولم يفلح .

كان مصابه جللا ، أعظم من أن يخفيه : لتسمع وجيدة ، ليسمع الأولاد ، لتسمع القرية : ناسها .. دوابها .. طيورها .. شمسها .. قمرها .. زرعها .. ارضها ، لتردد الدنيا كلها احزانى ، فقد رحلت اعظم امرأة بالوجود .

زوجته .. امه .. حبيبته .. إيمانه .. وجوده ، كانت هى ، لم يرى منها ما يسيئه ن لم تقل له مرة ما يخدش شعوره ، كانت نعم الزوجة :

- رحمك الله يا أم العيال .. رحمك الله يا ام العيال ..

.. علا بكاؤه حتى صار عويلا أسرعت على هديه وجيدة ، لتدد أباها ممددا فوق الدكة التى اعتادت الأم أن تجلس عليها وهو ينشج ، وجسده يهتز فى عنف .

جلست الى جانبه ، ووجهها الأسمر الحزين منقبض ، جفونها متقيحة من كثرة البكاء ، أخذت رأس أبيها على صدرها ، حاولت أن تواسيه فبكحت وتهدج صوتها وهى تربت على شعره :

- لنا الله يا أبت .. لنا الله ..

خفف بكاؤها كربته ، جفف دموعه . تماسك ، همس وهو يتحامل على نفسه لينهض بعدما ابعد يديها عن رأسه :

- اعذرينى يا ابنتى فمصابى لو تدرين عظيم .

- إلى أين يا ابتى ؟
- أريد أن أخلو الى نفسى ، فلا أكاد أطيق أحدا ، ولا أعتقد أن هناك من يطيقنى وأنا فى مثل حالتى هذه .
- أبت .. لماذا تنفر منى دائما ، كلما جئت اليك تركت لى المكان ورحلت ؟
- ابدا .. ابدا يا ابنتى .
- اذن فأبق يا أبت .. ابق .. حدثنى عن أمى .. انا لا أعرف عنها شيئا .. أكاد أجهل كل ما يحيط بوجودى ..

غامت عيناه بالرؤى .. جلس فى سكون ، عيناه شاردتان عقله يجتر الذكريات ..

- بماذا يجدى القول فيما راح يا ابنتى ، لقد كانت شيئا فريدا لا يتكرر ، هل تستطيعين أن تكونيها ؟ .. محال ، لقد كانت شيئا آخر ، مثال لا يتكرر ، عاشت لتعطى بسخاء حتى لؤلئك الذين أساءوا اليها وما اكثرهم . هيه .. لقد كانت نورا ، أملا ، حبا ملك الفؤاد والبدن .
- وهل حقا كنت تعمل اجيرا عندها يا ابت ؟
- وما زلت أعمل اجيرا عندها ، وسأبقى ما عشت اعمل من اجلها فدعينى اذهب يا ابنتى . دعينى وحدى .. صرت لا أطيق حتى نفسى .

إنه يذكر أيام كان يحرث الأرض ويبذر الحب . ويتسلل كل ليلة ليحرس الدار والحظيرة بعد ما شاهد الخفر ينامون وأسلحتهم تحت رؤوسهم منذ غروب الشمس .

كان يعلم أنها فتاة وحيدة ملكت الأرض والحظيرة والدار ، فصارت محاطة بالحساد والحاقدين .

كثيرا ما سمع الرجال الذين يؤجرون من القرى المجاورة يتحدثون عن جمالها . وعن محاولات أثرياء قراهم التقرب منها .

كانوا يقولون أنها فتاة عاقلة تفهم تماما أن كل هؤلاء الذين يتوددون اليها يسيل لعابهم من أجل الأرض والدار والحظيرة ، هى وحيدة وهم يطمعون فى التهام ما تملك .

ومع الأيام انطلقت الشائعات تلوك سيرتها ، قالوا :

- إنها لا تريد أن تتزوج لأنها تخاف أن ينكشف أمرها ، فهى ليست عذراء !!
- بل لأن لها عشاقا يترددون عليها فى الليل ، وأمثالها لا تطيب لهن الحياة فى كنف رجل واحد !!

رفع رأسه ، رفع فأسه ، لوح بها صارخا وجسده ينتفض غضبا :

- خسئت ألسنتكم : إنها أشرف إمرأة فى الوجود ، انى أسهر كل ليلة ببابها فما رأيت ظلا لرجل يخطو تجاه باب الدار . ويوم يجرؤ كلب على المحاولة سأقطع ذنبه وأجعله عبرة لكم يا ألسنة السوء ، وإنى لقاطع ساق من يحاول منكم أن يطأ أرضها بعد الساعة .

.. سمعت بما حدث منه ، ارسلت تستدعيه ، وقف أمامها مرتجفا لا ينظر اليها ، لايجرؤ أن ينظر ، وان كان قد حفظ وعاش كل تفاصيل الوجه الذى لا يراه فى وقفته . كان يقف وقفة المذنب ، فلعله أخطأ فى تصرفه مع الرجال بالأمس . قالت بعد لحظة صمت :

- سمعت بما حدث بالأمس .
- تمضغ أسنانهم طعامك ، وتلوك ألسنتهم سيرتك .
- ثم ..
- طردتهم ..

بل استدعيهم ليعملوا ويطعموا . ولا تقابل الإساءة بالإساءة ودع القصاص لرب الكون .

- ونعم بالله .
- سمعت أيضا أنك تحرس الدار كل ليلة .
- نعم يا سيدتى .
- هل أنت من الخفر المعينين ؟
- بل أنا فلاح فى الحقل .
- وتعمل سائسا بالحظيرة .؟؟
- لو لزم الأمر .
- ألا ترى أنك ترهق نفسك ؟
- إنه واجبنا نحوك .
- لو كان واجبا لفعله الجميع
- فقط ينقصهم أن يعرفوا ما أعرف .
- وماذا تعرف ؟
- أعرف .. أنك لهذه القرية الخير ، والرخاء والعطاء .

مالت تجاه خادمتها تهمس ، فارتجف قلبه بما يشعر به كما ألح بفأسه على الأرض الصلبة كى تتفتت وتلين لتقبل البذرة والخصب ، وثقب الهمس أذنه :

- ياله من رجل .

- بل هو الرجل المنشود .

لم يدهش ، لم يقرص اذنه ليتأكد من كونه ليس فى حلم جميل ، كانيجد فى زواجها أمرا طبيعيا ومحتوما ، ففى كل ليلة كان يبيتها أمام باب الدار كان يشعر أنه رجل الار ، والا فلو كان هناك للدار رجل غيره لظهر .. لأخذ مكانه .. ولذهب هو .

هو لها ..

وهى له ..

وهذا قدرهما المحتوم ..

- ٥ -

حاول القريون أن يتخذوا من زواجهما فى بدء انتشاره أملوحة ، ثم حاولا أن يجعلوا منه حكاية عشق حرام ، انتهى به الخوف لأن يتزوج الأجير مالكة الدار والأرض والحظيرة.

آلمه الكلام ، جرح كبرياءه ، لكنه لم يعد يعيره أدنى اهتمام وانصرف بكله لخدمتها، ولم يغير من عاداته شيئا ، فهو يسهر الليل مع الخفر ، وبالنهار يستحث الرجال فى الغيط ، وعند الظهيرة يقف على أحوال الماشية ، فلقد أصبح أبا ، وصارت هى أم العيال ، ورفعت الكلفة بينهما فأصبح يناديها : غالية .

- ٦ -

كان يعمل بالحقل لحظة أن جاءه أولاده يستحثونه على العودة الى الدار ، فقد رزقت أمهم بطفلة .

صدمه الخبر ، لم يكن يعتقد أنه سيرزق بغير الأولاد ، راح يمنى نفسه أثناء عودته للدار بأن يكون الأولاد قد أخطأوا التعبير لكن الواقع يفرض نفسه ، ولا مفر ، فالكلمة واضحة ، مسموعة ، ملموسة :

- انها طفلة .

دارت به الأرض ..

دار شريط الزمن معكوسا .

الكلمات ، الصور ، الهمس ، الرؤى : الرجال .. الليل .. الفتاة الوحيدة .. الخفر النيام . الأهل واللا أهل .

- يالشقاءك بالأيام التى ستعيد نفسها .

ابتلع غصته وابتسم مواسيا أم العيال فى فرحتها .

لم ينم ليلتها ، بات يفكر فى تلك التى جاءت وما كان مجيئها فى الحسبان ، وراح يهمس لها وهو لا يراها .

: وجيدة .. يا ابنتى المسكينة كم ستعانين . فالطامعون كثيرون ، والأخوة سرعان ما سينفضون من حولك ليبحثوا عن الزوجات والحياة المستقلة ، لتبقى أنت وحيدة ، ليت أمك تعيش حتى تتزوجنى . ليتنى أعيش ضعف عمرى لأختار لك الشريك ، ولأدفع عنك الأذى .

ـ ٧ ـ

.. لكن ها هى ذى أم العيال ترحل وتترك وحيدة ، أولادك الملاعين ما رأيت فى عيونهم حزنا على رحيل أمهم . أنت فقط من حزن يا وجيدة .

انتفض واقفا ، راح ينادى على الأولاد ، ثم أرسل من يستدعيهم ، فلما حضروا انهال عليهم ضربا وهو يصرخ :

- فراش أمكم لم يزل دافئا وانتم قد نفضتم عنكم الحزن ، لشد ما كانت امكم حكيمة حينما ورثت أختكم الدار والغيط والحظيرة ، أسمعونى جيدا : لا لعب ولا رفاهية ، لا راحة منذ الساعة ، كل مطلب لأحدكم لابد أن تحدد أسبابه وأهدافه .
- ولكنا لا نعرف شيئا من هذا .
- تعلموا . واعلموا أن زمن الكد بدأ ، ما من مطلب الا بعد أداء الواجب . وواجبكم العمل فى الأرض والحظيرة وصون شرف الدار ، أتسمعون ، منذ الغد لا أريد أن أراكم كالهوام فى فراغ .. أنت عليك بالعمل فى الحقل ، وأنتما عليكما بالعمل فى الحظيرة ، وكلكم فى المساء تحرسون الدار . أتسمعون ، ياويلكم منى ان لم تنفذوا ما عهدت به اليكم .

بصق الأب تجاههم . مشى الى حجرته ، وظل يتقلب فى فراشه وقد جفاه النوم :

: ها أنت ذا تقسوا على أولادك ، بعد طول عطف .

: وماذا أفعل وأنا أراهم فى رخاوة البنات ، وعليهم واجب حماية وجيدة

أسدل الليل خيوط الظلام .

تراكمت الهموم على الأب ، انسل من الفراش وخرج من باب الدار ، ووجد أبناءه يدورون حول الدار فى يقظة ، مسح رؤوسهم ، احتضنهم فى حب واحدا واحدا ، وابتلع الظلام دموعه التى انهمرت ولا يدرى لها سببا : أهى فرحة بهم ، أو هى أسف على قسوته السابقة ؟ . لا يدرى ، كل ما يدريه أنه يبكى ، تبتعد به خطواته ، ليسير وسط الظلمة بلا مقصد وقد انقادت قدماه وراء نور لاح على البعد حتى وصل الى المبنى الصغير ، مقام الشيخ الرفاعى ولى الله .

- مدد يا رفاعى .. مدد ..

دخل من الباب وهو يتماسك حتى وصل الى الضريح فاتكفأ على خشبه المكسو بالجوخ الأخضر ، واجهش بالبكاء مستغيثا بكلمات لا تبين :

- عونك يا سيدى ، الكرب يكاد يقتلنى ، قلق أنا عليها أخاف على وحيدتى من المستقبل كيف ستعيش من بعدى ؟ من سيحميها ؟ .. ماذا سيقال عنها ؟.. من ستحب ؟ .. كيف ستتصرف ؟ .. الى أين ستمضى بها الأيام .. من .. ماذا . كيف .. الى أين ؟.. وهى بجمالها تسلب قلوب رجال القرى وتجعلهم يفقدون اتزانهم ، فيتحولون لوحوش تريد أن تسيطر ، تلتهم ، تسلب الخير منها ، صنها يا رب ، احفظها يا الهى ، اجعلها ممن ترضى عنهم .
- يارب .. يارب ..

انتفض ، أخذ بالمفاجأة ، استعاذ بالله من الشيطان ، ثم تمالك جأشه ، ونظر الى مصدر الصوت ، فأدرك أن وحيدة كانت تجلس منزوية فى الركن المظلم من ساحة الضريح ، همس وهو يمسح بطرف جلبابه الدموع عن عينيه ووجنتيه ، بينما ظلت حبات الدمع تتأرجح فوق لحيته وقد سطع فوقها الضوء :

- ما الذى جاء بك فى مثل هذه الساعة يا وحيدة ؟
- إنها ليلة الزيارة التى عاهدت أمى عليها .. ألا ترى يا أبت أن الشمع يكاد ينتهى ولا بد من أن يستبدل بشمع جديد ، لقد حان الموعد ولا بد أن أجئ .
- وتحضرين وحدك ؟
- الله معى .
- لكن الناس لا يرحمون .
- رحمة الله واسعة .
- لكن هذا لا يمنعنا من البعد عن مواضع الشبهة .
- كانت أمى هى رفيقتى .
- من أيضا .. أتنسين ؟
- قليلو الأصل هم الذين ينسون .
- اذن تذكرين ؟
- كان رفاقنا الخفر والفانوس المضئ والعاملات بالدار ..
- وتجيئين وحدك .
- ما وجدت رفيقا

- منذ الليلة سأكون رفيق زيارتك ، ولو أنه كان بامكانك أن تصحبى واحدا من اخوتك .

نهضا معا . راحا يستدلان الشموع المحترقة بشموع جديدة ثم خرجا معا ، يدها فى يده خطوهما متسق .

بعد لحظة مرت همست له فى توسل :

- ارجوك يا أبى .. احك لى كل شئ عن أمى .

راح الأب يقص على وجيدة قصتهما ، فما يكون ، ومن تكون أم العيال ؟ . انهما حكاية واحدة .

حين وصلا الى الدار ، كان الأب موقنا بأن غالية لم تمت ، بل هى موجودة ما دامت كانت وجيدة .

- ٨ -

عاودت الأب الرغبة فى العمل . زايلته كآبة .. انزاع عنه الخمول. ظهر من جديد : على شط الترعة . وسط الحقول . بين الفلاحين فى الجرن . داخل الحظيرة .

.. بعودة الأب دب النشاط فى الرجال . سارعت النسوة فى حصاد المحاصيل . حتى البقرة العجفاء عادت تدر اللبن .

أما أبناؤه فقد فهموا معنى العمل ، وإن كان يلاحظ عليهم التكاسل فى أحيان كثيرة رغم أنه كان يقطع عنهم العون ، ويحرم عليهم الأكل مع الرجال . ثم تكشفت له الحقيقة . عرف أن وجيدة كانت ترسل المال والطعام الى من يقع تحت طائلة العقاب .

ثار ..

طلب منها ألا تتدخل فى شئونه :

- هم أولادى ، تربيتهم مسئولة منى أنا ، وليست منك أنت .
- لكنهم اخوتى .

زادت ثورته ، أمسكها من كتفها يهزها وقد علا صوته :

- ومن أجلك اقسوعليهم . من أجلك أدوس على مشاعرى كأب . أدوس . أدوس حتى كادت أعصابى تنهار ، أقسو عليهم بالنهار وأبكى من أجلهم بالليل. من أجل من كل هذا ؟ . من أجلك أنت .. من أجل أن أحيطك بالرجال الذين يفهمون معنى الوفاء ، وحدى حميت أمك . دافعت عنها ، صنتها ، فما وطأت عتبة دارها قدم غريب . ولكن أتدرين ماذا يحيط بك ؟ .. أتعلمين أن هنالك من حاول أن يتسلق سور الدار منذ ليلتين لولا يقظتى .. فأين كان اخوتك . نيام . اخوتكيا وجيدة

كانوا نياما . وأنا سهران منذ ولدت . الخفر لهم العذر فى أن يناموا . انهم لم يتعلموا سوى ؟ نكبر لنتوظف ، نتوظف لنتقاضى الأجر كى نعيش . أما اخوتك فيعلمون تماما أنهم بك ، ومن غيرك لا يكونون . ولشد ما اخاف أن يفسدهم حنانك فيأتى اليوم الذى تصرخين فيه فلا تجدين لك من معين .

- أبى .. لا تعذب نفسك . كفاك ما بذلت . دعهم وشأنهم فالخير كثير .
- وانت ؟
- لى الله .
- مادام كان بجسدى عرق ينبض ، لن أسمح بأن يحدث هذا الخلل ، الأرض والحظيرة والدار لك . من خيرك نعيش ، ومن لا يدرك هذه الحقيقة فعليه أن يرحل من القرية . يرحل من لا يعجبه الحال . ليرحلوا جميعا . ولكنى أشعر بأن طبيعة الأمور تحتم على أن أسبقهم بالرحيل . لذا يجب عليهم أن يبقوا ، ويجب على أن أغرس فيهم من ذاتى الكثير .

نادى الأب على أبنائه ، راح يحكى لهم عن ماضيه ، عن واجبهم تجاه اختهم التى لا تملك امام حبها لهم ، وحدبها عليها ، ألا أن تعطف رغم اهمالهم لها .

- ولكنا سمعنا غير هذا .
- ماذا سمعتم ؟
- انه لا شئ لنا : نعمل .. ونعمل لنصر فى النهاية الى لا شئ ، فلنا الفتات ولها كل شئ . فى القرى الأخرى يبذل الرجال جهدا أقل وينالون اضعاف ما نأخذ .
- من قال لكم هذا ؟
- غريب .
- اوليس هو ابن الغجرية الجوالة ؟
- نعم .
- ماذا قال ايضا ؟
- قال انه يجب علينا ان نبحث عن مستقبلنا أولا . مصلحتنا فى البداية ثم يجئ ما عداها . حتى لو لزم الأمر أن نرحل عن القرية .
- نعم .
- وهل تعرفون أن غريبكم هذا حاول أن يتسلق سور الدار ؟ هل تعرفون أن "غريب" هذا حاول أن يتسلل الى قلب اختكم ؟ .. يريد أن يستغل ما تملك ليسيطر على كل شئ .. هل تعرفون هذا ؟ .. بالطبع لا تعلمون . لهذا طلبت منكم أن

تفتحوا عيونكم ، أن تدركوا ما حولكم ، أن تعلموا أنه يجب الا تتالح لغريب وأمثاله الفرصة لكي يسرقوا خبر اختكم وبأيديكم سيفتح له الباب أو يوصد . كونا لأختكم مثلما كنت لأمكم . وستثبت لكم الأيام أنه ليس بالوجود من يستطيع أن يسعد او يشقي الدار او يخرب الحظيرة او يجعل الأرض قاحلة سواكم وان كلشئ سيرتد عليكم خيرا أو وبالا .

ـ ٩ ـ

- أبى .. سمعت ما تكلمت به عن غريب .
- ما هو رأيك فيما قلت ؟
- تجنيت عليه يا أبت .
- بل أنت من ستجنى على نفسها . فماذا تعرفين عن غريب ؟
- هو ابن الغجرية الجوالة .
- وبعد ؟..
- يسهر الليل يحرس الدار .
- كذب .
- وفى الصباح يسبق بفأسه الرجال .
- كذب .
- وعند الظهيرة يمسح على رؤوس الماشية فى الحظيرة .
- كذب ..كذب ..كذب ..
- اما قالت لى هذا ؟
- تخدعك .
- ايقظتنى فى الليل وأشارت الى شبحه اليقظ .
- تغشك .
- ارتنى البقرة العجفاء التى جعلها تسمن .
- يرسمون الخطة ، ينسجون الشباك من حولك ، يحاولون محاكاة ما كان ليوقعوك فى الفخ ، لينفض من حولك الأخوة ويذهب خيرك لمن لا يستحقون الخير .
- الناس جميعا يحكون .
- ينسج الشائعات من حولك كخيط العنكبوت .
- والهدف ، هدفه من هذا كله ؟
- يوقعك فى حبائله . يمتص دمك .

- يقول انه لا يريد شيئا . تماما كما لم ترد انت .
- الفارق كبير .
- كيف ؟
- كيف اعمل فى صمت . لم أوفد الرسل لأمك . لم أجرؤ على النظر اليها حتى اكتشفت هى كل شئ .. شتان بين الذين يعملون فى صمت والذين يجعلون الكلام صنعتهم .
- تظلمه يا أبت .
- بل هى الحقيقة .
- وأنا لا أراها اطلاقا .
- ترينها أو تعمين عنها هذا شأنك . لكنى أقسم بالله أنك لن تكونى لغريب هذا ما دمت على قيد الحياة .

ـ ١٠ ـ

: إيه يا زمن .
: وجيدة كبرت .
: أصبحت تناقش وتعترض .
: الأدهى أن الخيوط تنسج من حولها فى مهارة .
: تطلق الشائعات .
: ترسم كل خيوط الماضى .
: ولأنها تعيش ماضى أمها .
: تسير معصوبة العينين .
: فتصير هى الأم .
: ويأخذ غريب مكانى .
: المحتال سينجح .
: بل سأوقفه عند حده ، لقد أقسمت . ولن تكتب وثيقة زواجه بوجيدة الا اذا غمسوا القلم فى دمى .

ـ ١١ ـ

جلس الأب بين أبنائه ، الصمت يلف المكان ، الشموع المضاءة فى مقام الشيخ الرفاعى تفرش نورها المشوب بالحمرة على الجدران . رائحة بخور تعبق الضريح . رفع الأب يديه وقد بسط كفيه وقال :

- الفاتحة .

رفع الأبناء أيديهم وقرأوا الفاتحة فى خفوت . ثم مسح الجميع الوجوه بأكفهم المنبسطة .

- لقد اجتمعنا فى مقام ولى الله الطاهر للتناقش ، أختكم فى خطر . هناك من ينسج الخيوط .
- من ؟..
- هو ذاته من سبق وحذرتكم منه .
- غريب ؟
- نعم
- ولهذا يشيع عنك ما اشيع ؟
- عنى أنا ؟
- يقول انك تخاف أن تخرج ثروة اختنا من تحت يدك ..
- الكلب ..
- وانك لن تتورع عن قتلها اذا اشتد الخطر عليك .
- على ؟
- وقد نقلت الدلالة لوجيدة ما أشيع وحذرتها منك .
- ولهذا كانت تغلق بابها بالمزلاج .
- قالت انك قد تدس لها السم فى الطعام .
- أقتل وجيدتى .. ياويلهم .. يجب أن تنتبهوا جيدا .
- الأمور تحاك بمهارة حول اختنا .
- كل الأصابع تتجه الى وجيدة . الشائعات تغزو الأذان وتعشش فى الرؤوس . وينتهى الأمر بى .
- بك انت ..
- نعم .. فأنا الذى يجب أن يزاح من الطريق .

الفصل الثالث

شائعات .. شائعات .. شائعات .. شائعات

ـ ١ ـ

عوت الكلاب بشدة طوال الليل . مزق عوازها الأفئدة . أكثر بيوت القرية ظلت مستيقظة وقد وجفت قلوب سكانها . الجميع متوجسون ينتظرون حدوث امر جلل . انبثق النور . فتكشف المجهول وانطلقت صرخة ملتاعة :

- أبو العيال .. قتل ..

.. ولا من دليل يرشد عن القاتل . كل ما هناك .. على جسر الترعة . وعثروا على جلباب الأب ممزقا تسوده بقع دم متجلط شربته الأرض . ثم اثار عميقة تمتد فوق التراب لتنتهي عند ماءالنيل . لينقطع كل أثر ، ويضيع كل دليل . فالجثة حملها تيار النهر بعيدا .

- الى أين ؟
- الله يعلم .
- لكن ابنا كان يستنتج ما سيكون .
- قال ان الخيوط تنسج ..
- وقد نسجت بمهارة
- لينتهي الأمربمقتله .
- تماما كما توقع .
- ولا من دليل .
- ويضيع دمه بلا قصاص
- محال .
- بل هو الحق .. فلا دليل .
- ولا أثر .

ـ ٢ ـ

- كل ما يثار : شائعات .. شائعات .. شائعات ..
- ولا شئ غير الشائعات
- حتى لقد لطخت الشائعات ايدينا بدم أبينا .

انتشرت الشائعات تصوب اصبع الإتهام تجاه الأبناء : فالأب كان يعاملهم بقسوة . والأم حرمتهم من ميراثها ووافقها الأب على تصرفها . وهو أيضا يكلفهم بالعمل ليل نهار . في أحيان كثيرة كان يفرض عليهم قضاء اليوم بطوله دون طعام .

- لكنه ابونا .
- ان قسى فلصالحنا .
- كان هدفه تقويمنا واصلاح حالنا
- قد نغضب .
- لكن .. ان نقتل ..
- ونقتل من ؟
- أبانا ..

- ٣ -

الشائعة لا تلقى نصيبها من الرواج . أصبع الإتهام تقبض ثم تنفرد ثانية لتشير :

- ولم لا يكونون ؟
- من ؟
- اهل القرية
- وما هى مصلحتهم فى هذا ؟
- بماذا يفيدون من مقتله ؟
- لا الأرض سيرثونها .
- ولا القصر سيسكنونه.
- كل شئ تمله اختنا وجيدة .
- وهم يكنون لأبينا كل حب .
- لأنه منهم .
- ظل طول عمره منهم .
- ماشعروا يوما بأنه يتعالى .
- يده مع أيديهم .
- بل قبلها .
- ما أقدم على خطو الا استشارهم .
- اذن .. فلماذا يقدمون على هذا الجرم ؟؟
- لكنها شائعة قوية انتشرت تتهم .
- لتجعل كل مخلوق فى القرية يتجنبنا ، ويستشعر الذنب بلا ذنب .
- أو يقسم مغلظا بأن ثأر أبينا مطلوب منه قبل أن يكون مطلوبا منا حتى لو كان القاتل أباه أو أخاه أو ابنه .

ـ ٤ ـ

.. الأبناء يبحثون . فى كل مكان بالقرية ينتشرون . كل شائعة يلتقطونها . طالت لحاهم . لم يتذوقوا الطعام منذ أيام ..

جلس أصغرهم بجوار النهر . فى نفس المكان الذى قتل فيه الأب ـ هو أكثرهم تعلقا بأبيه ـ كثيرا ما قال الأب له : أرى فيك خيرا وبركة .

كان الإبن الأصغر يضرب التراب بعصاه وقد توارت على ذهنه الخواطر . راح يزن الأمور . ليصل الى نتيجة ما سرت ونهض .

مشى فى صمت الى حيث اعتاد الأخوة الإجتماع . الشمس قد مالت للغروب والسماء مخضبة بدم الوداع ..

: أبى لم يمت .

: لكنه قتل .

: ولم يقتل . اقتنعت بأنه ما زال يعيش .

: كيف ؟

: مادمنا نعيش .

: لكن القاتل سينتشى ليقضى عليكم ؟

: لن يهنأ .

: اتقتله ؟

: لو التف حوله حبل الإتهام فسأخنقه به .

.. الإبن الأصغر تضرب خطواته الأرض . يود لو يسرع الخطو . لكنه لا يجرؤ . هو يحس بالعيون تحاصره . تحصى عليه خطوه . والمكان لم يعد ببعيد .

ـ ٥ ـ

دفع الباب بقدمه ودخل . نظروا اليه جميعا . دون أن يقرأهم السلام صرخ فيهم :

- من له صالح فى موت أبينا ؟

- ..

- لست أنا .. ليسوا أهل القرية . اذن فمن يكون ؟

اصفرت الوجوه . تخاذلت السيقان . تفجر فى الأذهان سؤال : أيتهور أخونا الصغير ؟ .. أتراه سيشير بأصابع الإتهام لأحدنا مخصصا ومحددا ؟..

- مابالكم لا تردون على السؤال . من يكون صاحب مصلحة فى قتل أبينا ؟

- قل أنت ؟

- افصح عما تريد

- أقول لكم من .. ولا تأخذكم المفاجأة فاسمه لم يرد فى شائعة . ولا لاكه لسان . مع أنه القاتل .

- من هو ؟

- غريب .

- ابن الغجرية الجوالة ؟؟

نضت الكلمة الثياب عن أعماق أعماقهم . كشف أخوهم الصغير ما كانوا يعدونه سرا لا يعلم به مخلوق . تضاؤلوا فى اماكنهم . شملهم صمت مقرور ، واستطردت الكلمات :

- اتحسبونى لم أكن أعلم . كنت أراقبكم . أشد ما يخزيكم واجتر الألم . كنت آسف لكم . واشفق عليكم . وكان هناك خطأ رهيب ارتكبته هو أنى لم أنبه أبانا محذرا من الخنجر الذى يغوص فى الظهر متجها فى سعيه نحو القلب .

ـ ٦ ـ

الغجرية الجوالة تسوق محارتها العجفاء أمامها .. تطأ قدماها أرض القرية لأول مرة . تلكأت خطواتها أمام ضريح الشيخ الرفاعى حيث كانوا يجلسون . تطلع البهم ابن الشيخ الرفاعى يرقب نظرات الإشتهاء التى انطلقت تطاردها وتنهد من أعماقه وتمتم بعبارات مبهمة عن الشر الذى حط على كتفى وجيدة ..

.. وكأنما كان ما كان ايذان بالفراق ، فلقد لحل ابن الشيخ عن القرية ونسوا هم الجامع والمقام . شغلتهم الغجرية بدنياها . كانت أمرأة من طراز منفرد . ما رأوا مثلها فى حياتهم : تنازل الرجال . لا تأنف أن تحكى لكل رجل مغامراتها مع الآخرين . ورغم أنها كانت لهم جميعا ، فإنها كانت تشعر كل واحد منهم أنها له وحده .. فقط للحظته .

: كنا نتخاصم من أجلها .

: ونتضارب أحيانا .

: والآن نكاد نغرق فى عار خزينا وذكرياتنا .

ـ ٨ ـ

ابتلع احدهم لعابه المر . وتحرك يستعيد ما انقطع .

- لعينة هى .. وملعون ابنها .. لكن السؤال يطرح نفسه : ماذا يعود على غريب من مقتل ابينا ؟

- يخلو له الجو فيتزوج اختنا ..

- يتزوج وجيدة ..

- غريب الكلب
- ألم نحذر من هذا
- وتناسيناه
- وظل غريب ينشر الشائعات وينسج الخطط .
- والأفعى اللعينة تعض بنابها وريد وجيدة .

.. كل شئ بات واضحا . الغجرية الجوالة نقلت لوجيدة حب ابنها . وجيدة قلبها غض . تفتح القلب لغريب . لكن الأب يعترض .. أبوهم قال: لا . فقتل غريب أباهم .. تربص به وقتله .

- ولماذا لا يكون الأمر مقلوبا ؟
- كيف .؟
- تكون وجيدة هى القاتلة .
- اختنا تقتل ؟
- محال .
- ليس هنالك ما هو محال ولنقلب الأمر باتزان .

ـ ٨ ـ

.. اختهم علمت بالخيوط . ظل النسيج يزحف حتى صار جزءا منها وصارت جزءا منه . وجيدة تسمع عن كراهية الأب لغريب . تعرف بقسمه بألا تتزوجه . غريب يوسوس لوجيدة : أباك يخاف أن يفقد سيطرته على الأرض والداروالحظيرة . بل لو احتاج الأمرسيقتلك بل هو حتما سيقتلك .

.. وجيدة تغلق بابها بالمزلاج .. تخاف ويشتد خوفها :

- وفى لحظات خوفنا الشديد .
- حينما يتحول خوفنا رعبا .
- تفعل أى شئ .
- يفقد الإنسان انسانيته .
- تستعبده غريزة واحدة .
- هى حب البقاء ..
- هذا صحيح .. ولكن أن تقتل وجيدة اباها ؟
- هو يدعى حبها ..

- وحينما يكون الحب زيفا وشركا لهدف غيره . يكون مدعى الحب مستعدا لأن يقدم القربان .
- وجيدة اذن شريكته .
- يداه ملطختان بدم أبينا .
- لنقتلها .
- لنقتلها .
- نقتل من .. اختنا .؟؟
- ونضيع من بعدها .
- بل سنملك الأرض والبيت والحظيرة .
- ومن قال اننا لا نملكها .
- غريب .
- سنعود اذن لغريب ، وما قال ، وما اشاع .
- لعنة الله .
- لنقتله هو فنصلح حال وجيدة .
- ونعود لسيرتنا الأولى .
- نقتل .. لا نقتل .. تتحدثون وكأنكم سلطة قصاص .
- نعرض الأمر على أهل القرية .
- بل نحن من يجب أن يؤخذ القصاص بأيديهم .
- نحن ..
- أؤيدك ..
- أؤيده ..

.. اختلف الأخوة . ارتفعت الأصوات . اشتد الصراخ . زادت حدة النقاش . تباعدت الآراء . امتطت الرقاب . تقاربت الوجوه فى تحد ثم تباعدت .

الأخ الأصغر صامت . من وراء سحابة الدمع التى غلفت عينيه ، كان الشريط يدور أمامه مشوشا دون أن يشعر برغبة فى المشاركة فيه . كان موقنا أن دم الأب قد ضاع . لكن أن يصل بهم النقاش حد اتهام وجيدة فهو الجنون .

ضاق بالجدران . شعر بالإختناق . فرمن المبنى .. حملته خطواته بعيدا الى الغيطان ، وان ظلت صور الشريط ملتصقة بحدقتى العينين .

وجيدة بعد الأم رعته : أطعمته .. سقته .. علمته ..سعت بكلها للأخذ بيده ، حتى حينما كان يخطئ .. كانت تغفر له وتحنو عليه . ورغم أنه يكبرها فانه كان يمتلئ اقتناعا بأنها:

أما أن تكون وجيدة قاتله فهذا محال . لأنه يتعارض مع طبيعة وجودها : هى الخير والحب والعطاء . لا الخوف يغيرها . ولا الفرحة تنسيها . هى دائما لمن حولها تعطى وتهب بلا كلل أو ملل . كانت تقول له دائما .

- أنتم وجودى .. وأبى منار حياتى .

: اقتلته ؟

: الدم يلطخ يديها .

: انه دمها . هى تنزف على ابينا بل علينا جميعا .

: لكن جمالها . خيرها . طيبتها دفعت " غريب " لأن يقتل أباك . وهى تحب "غريب" .

: هى لا تحبه . هو يفرض نفسه عليها .

: لماذا لم ترده ؟

: بل لماذا لم نرده نحن عنها ؟ نحن الذين دفعناها دفعا اليه . نحن الذين من صلب صلبها سبب كل ما تقاسيه من شقاء .

ارتمى فوق الزرع وقد استعصى عليه الدمع . اجتاحه غيظ جارف . راح يدق رأسه بالأرض العطشى . فجأة تماسك . اعتدل. برقت عيناه : سيفضحهم اولئك الذين يجلسون بين حيطان دارها ويلوكون سيرتها بالإتهام .

ازداد بريق عينيه تألقا . قفزت من أعماقه الفكرة يقينا فرفع يديه لأعلى . سقط ضوء القمر وظل السحاب فوقها يرسم خطوطا وبقعا متداخلة . دقق النظر . توجع من أعماقه : دم . دم أبينا ..

نهض ..

جرى ..

تعثر ..

اعتدل ..

عاود الجرى وكل همه أن يصل الى القرية بصرخته :

- يا أبى .. يا ابانا دمك مسفوك بأيدينا .

- المسكين جن .

- فقد الإتزان ..
- الأحداث كانت من العنف لدرة لم يحتملها .
- بالتالى لم يعد يحتمل عالم العقلاء .
- فر منه ليحبس فى قفص الإتهام كل الضمائر .
- الحق معه لأن أخانا الصغير يصرخ بالحق فاسمعوه .

.. من منهم يستطيع أن ينكر . كلهم هربوا من المسئولية . ناموا الليل . تركوا الفرصة لغريب . بل صاروا يسمعون لغريب .

- أنسيتم أننا شربنا الكلمات .
- كانت حلوة كشراب مزج بسم لا طعم له أو رائحة .
- وكرهنا العمل ونسينا أمنا وأهملنا اختنا وخادعنا أبانا .
- حقدنا على الدنيا ومن فيها
- خبيث هو .
- ناعم كالأفعى .
- يتشدق بكلمات ظاهرها الحب وباطنها ينضح بالكراهية .
- وحذرنا أبونا .
- وسرعان ما نسينا
- رغم الشائعات ومرارة الإتهام .
- وكأن وجيدة ليست منا .
- فالشرف والأمانة والأسرة كلمات فارغة .
- هكذا علمنا .
- حتى بتنا نهرب من وجيدة اذا ما طلبت من أن نوقد الشمع فى مقام الشيخ الرفاعى . أو نرافقها اليها .
- لولا اصرار منها على أن تقوم بذلك .
- أو على أن تقوم بلقياه .
- ففى مثل تلك الليالى كانت تلقى غريب .
- هو يطاردها فى كل مكان ويفرض عليها نفسه .
- لكن الشائعات تنتشر .
- ونرى عناق الأشباح .
- فلا نسمع أو نرى .. فلقد كانت الخيوط تنسج بمهارة .

- وكنا نتناولها نحن لنكبل بها الجسد والروح .

ـ ١١ ـ

كانوا فى خيمة الغجرية . لأول مرة رأوه . أشارت اليه وقالت بفخر :

- غريب .. ابنى . هو ابن طيب مطيع لأمه .

وجدوا فيه عالما غريبا : هو سكير . عربيد . سجائره دائما على حد قوله "عمرانه" تختلط قطع الحشيش بدخانها .

فى البدء رفضوا مجاراته : مالهم وهذا . لهم أب لم يروه ابدا فى حالة سكر . العمل هو كل حياته . امهم ايضا غير تلك . سيدة هى فاضلة . غريب وأمه عالم غريب عنهم . منبوذ منهم . وان كان يبهرهم : لكن الإغراء يزداد .

- كأس واحدة ولا تكرروها .

- سيجارة واحدة للتجربة .

بعدها لم تمتنع اليد عن التقاط الكأس .ز ولا الفم عن التقاف السجائر ..

- صار كل حياتنا ..

- تفتحت له كل الأبواب.

- تعامينا عنه حتى وهو يحاول ان يقفز من فوق سور الدار.

- خدعنا أبانا رغم أنه حاول انتشالنا .

- رمى الحبل وكشف زيف كلمات غريب وضياع عالمه .

- لكننا كنا قد ضعنا .

- نسمع من أبينا فننقل ما يقال لغريب .

- ونسمع من غريب فنبكى ندما على قدمى ابينا ونحن نقئ كلماته .

- ولم يفقد أبونا الأمل

- كان يعتقد أننا سنستطيع أن نقدم على شئ .

- وما كان يخطر له ببال اننا صرنا لاشئ .

ـ ١٢ ـ

- يا أبى .. ياأبانا دمك مسفوك بأيدينا .

دوت صرخة الأخ الصغير تسد عليهم طريق الإستغراق فى الماضى وتهز منهم الوجدان :

- صرخة أخينا تتردد ..

- يدور بها بلا كلل .

- وتلتقطها آذان أهل القرية .
- فتنثنى العيون تتهم .
- وتعجل الألسن ساعة القصاص .
- ونحن أضعف من أن نقدم على شئ .
- كان هذا مؤكدا منذ ثار البحث والنقاش .
- كل واحد منا ادعى الإهتمام .
- حتى بتنا وقد اتفقنا على الا نتفق .
- لأننا نوقن من معرفتنا للقاتل .
- ونحن بعض مريديه .
- ولا طاقة لنا به .
- اذن فلا بقاء لنا فى القرية
- لنرحل قبل أن يسقينا غريب دم أبينا فى كؤوسه .
- أو يحرق عظام أبينا داخل سجائره .

الفصل الرابع

حينما تنكشف الحقائق الغائبة

- ١ -

: رحل اخوتك عن القرية يا وجيدة .

: وجيدة أنا لا سند لى أو عون .

: أيوكو قد تحقق كلام أبيك ؟

: أن أصرخ فلا أجد من معين ؟

: هكذا قال يوما .

: بل تحقق كل ما قال . فأنا أصرخ اليوم من أجلهم جميعا ولا أجد أحدا حولى . أقلب الأمور فتسود الدنيا أمام عينى . حتى أصبحت لا أنام الليل .

: ليس بمثل هذا تعالج الصعاب .

: مقتل أبى . جنون أخى . رحيل أخوتى . كل هذه مطاردة بها لأنى السبب .

: لست وحدك المذنبة .

- أبى قتل لأنه تشدد ليحمينى . مقتله جعل الخيوط تتشابك لتضغط على قلبى بقوة فهو منار حياتى . كلما تذكرت أبى عارضته . اتهمته بالظلم أكره نفسى . أهكذا يكون الجزاء ؟ . أهكذا يبر الأبناء آباءهم ؟ . أهكذا نسير على هدى قول الله تعالى " فان بلغ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما " .

: كنت تدافعين عما تعتقدين أنه حق .

: والآن يملؤنى الشك فى كونه حقا .

: كيف ؟

: كل ما تنبأ به أبى حدث . هذا يدل على صدق نظراته وصفاء سريرته وعمق فهمه للحياة. فلماذا لا يكون معه الحق فيما قال عن غريب ؟

: بل لماذا لا يكون غريب قاتل أبيك وأداء لمعارضته ، ولكل صوت يمانع فى زواجكما ؟

: لا أدرى .. لا أدرى . اختلطت على الأمور فما عدت أفرق بين الخطأ والصواب .. الحق والباطل . الخير والشر . القاتل والمقتول .

بكت اعماقها قبل ان تنساب حبات الدمع من العينين الحمراوين من طول سهاد وهما تتطلعان لأعلى فى مذلة وابتهال :

- يارب . يا غافر الذنوب . ضاقت بى السبل . فهل من منفذ ؟ . هل من شعاع نور يضئ كآبة روحى واظلام بصيرتى ؟ . أبى مرشدى مات . بصماته فوق كل ذرة من ذرات وجودى . فى بصماته نور الطريق ، لكنى عميت عن قراءتها . دمه يطمس بصرى . وقاتله ما لى به من سبيل . فى ظهور قاتله انقشاع للضباب . لكن الإتهام يلف الجميع : غريب يقول أنهم اخوتى. اخوتى يتهموننى أنا . عقلى يسرق بأنه غريب ز أصغر اخوتى يرفع عقيرته من كل آن . أحب الإخوة للقلب صار يصرخ بأن دم أبينى يلطخ ايدينا .. بعدما اضناه الفكر . وحطمته بشاعة الجريمة . ذلك الخير الأمين ما ذنبه حتى يفجع فى حبه للناس ؟ .. ماذنبه وذلك الغالى حتى يهيم على وجهه بين المزارع بلا طعام أو غطاء ؟

ـ ٢ ـ

هى تحبه . من حبه لها كانت تزداد به شغفا . ذلك الغالى الذى ما أخذت عليه مأخذا . ولا سمعت عنه ما يشين .

كان نظيفا . رقيقا . يحب الحكايات . يحب أيضا أن يسمع الشعر . يقرأ كل ما تقع عليه عيناه من كتب .

حمل اليها ورقات . وضعها بين يديها وانسحب مسرعا وقد احمر وجهه . كانت الأوراق قصيدة شعر يتغنى فيها بوجيدة .

: أبدا .. لم يقل عنى وجيدة .. كان يسمينى سر الحياة .

يوما قال لها وهو يفرد جسمه الضعيف ليوجه كل ما سيأتى به النقاش :

- يخيل الى أننى لو لم أراك يوما سأموت . كلما مريوم زدت وثوقا من كونى بدونك هباء .
- كلام شعراء يا صغيرى . غدا . حينما تكبر ستشعر بأنك كنت تغالى .
- بل سأزداد ايمانا بما أقول . يومها سأكون أسعد بقوله . لأننى لن أقدم الكلمات وحدها بل سأقرنها بالعمل وفاء لبعض من فضلك .
- ليس فضلا يا أخى .. ما شعرت يوما بأن لى فضلا على أحد . فقط هى رسالتى أؤديها . أليس لكل منكم رسالة ؟ . أنا أيضا مثلكم . وتلك رسالتى .
- الا أن تكشف لى سر مروقهم .
- مروق من ؟
- أخوتى وقد نسوا كل واجب الا واجب الإرتماء تحت اقدام تلك الغجرية الحقيرة .
- اخفض صوتك . أبونا لو سمعك سيقتلهم . الا تستشعر قسوته فى معاملتكم ؟..

- ليتك تتركين له الفرصة ليقسو .
- أنت تقول هذا ؟
- بل اطالب به من أجلك .
- لكنى لا أستطيعه . فأنا لا أحتمل رؤية ظل لألم يرتسم على قسمات أحد . فما بالك اذا كنت انا السبب ، وكان المتألم أخى .. حبة قلبى ؟

هكذا أنت .. وهو ما سيكون سبب كل ما سيجئ من شقاء . ذلك الفيض من الحنان والخير . تلك الرتابة التى تجعل النائم يطمئن الى سقوط اللقمة فى فمه . والسكير واثق من غفران ذنبه . حتى المخطئ مؤمن بعفوك . ولا من مرة تثورين . ما من مرة تكشفين عن وجه الغضب ، لأن هذا كله ليس فيك وليس منك .

- كلام فيلسوف .
- بل هو كلام أبى حفظته .

ليتها تستطيع أن تحد من جيشان عاطفتها . فها هو ذا أخاها الذى يصغرها يفكر فيحكمه المنطق والعقل ، وليس مثلها يحكمها شهور جياش بأنها أم للجميع ، وليست مثل أى أم والا ما نسيت وصية أمها : اذا كرهت عاطفتك ضرورة القسوة على العصاة من الأبناء فدعى عقلك ينفذها . فهى اصلاح لمن يضل السبيل .

ـ ٣ ـ

- ياويلى .. ياويلى .. ما أكثر ما نسيت .
- بل ما أكثر ما تناسيت .
- هو قدرى . مكتوب لا بد أن أراه . أحسه . أعيشه بكل كيانى .
- أن تقفى ضد الأب فى تربية أخوتك ؟
- ....
- أن تفتحى قلبك لغريب ؟
- ...
- أن تهربى من مرارة اتهامه بقتل أبيك ؟
- لا ..
- لقد حولت تيار التفكير .
- أبدا ..
- لأنك تحبينه .
- خفق قلبى لحرارة أفعاله .

- اذن تحبينه .

: أبدا .. أبدا . ما احببته يوما . لكنه كان دائما أمامي . كان دوما بجانبي . مثلما كان أبي لأمي . حينما تخلى عنى اخوتي كان يقف بجانبي . يذهب معي الى المقام . يحرس الدار في المساء وفي الصباح يسبق الرجال الى الغيط والحظيرة . ما استدعيته يوما . لكنه كان دائما حولي في كل مكان اذهب اليه . وان غاب فأمه لا تترك لأذني فرصة سماع كلمة غير اسمه .

: قال ابوك هذا خداع .

: لم أدرك ما قال . كانت كلماته الغجرية أعلى من صوت أبي

: حذرتك أمك . قالت اياك أن تعصى اباك .

: .....

: واخوتك من ساعد على انحرافهم وبالتالي جعلهم يتخلون عن مكانهم ؟

: .....

: من جعل صلابتهم رخاوة ؟

: ...

: من أغدق عليهم في لحظات كان يجب ان يعانوا فيها من الشح ؟

: من أخفى حقيقة انحرافهم عن أبيك ؟؟

: ....

: من صنع كل هذا الضياع وأعطى الفرصة كاملة لغريب . من ؟

: اخوتي كان لديهم الإستعداد .

: وأبوك كان يلومه . كان يستطيع التقويم . فقط لو تسدلي ستارا يحجب عنه ما يحدث . ويسد عليه الطريق .

: كان قاسيا .

: حيث يتطلب الأمر القسوة . كان يريد أن يصنع منها دروعا تذود عنك . فصنعت أنت منهم اقزاما تسلق غريق ضعفهم ليصل إليك .

ـ ٤ ـ

دون أن يطرق الباب دخل حجرة نومها . واجهها عاقدا ذراعيه على صدره في تحد .

- منذ متى كنت استأذن قبل حضوري ؟

- لم السؤال ..؟

- اعترض الخفير طريق دخولي .

- انها أوامرى .
- أن امنع ؟ ..
- تغيرت الظروف . الشائعات لا ترحم .
- أنا أيضا لا أرحم . لقد جعلته يدرك كيف سيكون جزاء من يعتر سبيلى . تعالى . انظرى .

جذبها من يدها فى كثير من العنف . استقامت مجبرة . دفع بها نحو النافذة ووقف وراءها فاردا ذراعه عن آخرها يشير مزمجرا :

- رقد ضربته كما لم يضرب طيلة حياته .
- ماذنبه ؟
- سأضرب كل من يقول لا .
- برئ هو .
- اكتفيت بصلبه على حديد الباب .
- المسكين .
- المرة القادمة سأقتله .
- تقتله ؟
- نعم سأقتله .. سأقتله .

انتابها الرعب . هلعة هى . مارأت فى حياتها مثل هذه القسوة .

: الأب فى قسوته كان رحمة .

: وغريب ؟

: سفاح .. متوحش .

: فلماذا لا يكون هو قاتل أبيك ؟

: قاتل أبى ؟ ..

.. السؤال يتردد فى الحاح . الكلمات تدورفى رأسها . تدير كل المرئيات . الخفير المصلوب يدور . الباب يدور . يقترب من النافذة . وجه المصلوب تكبر ملامحه . يقترب من عونيها . يقترب من وجدانها : انه هو .. أفلتت منها صرخة مدوية ؟

- أبى ..

اندفعت مهرولة من الحجرة . راحت تقفز الدرجات . اجتازت الحديقة جريا . خلفها يعدو غريب محاولا اللحاق بها . لكنها سبقته الى الرجل المصلوب . فكت قيوده . وقف الرجل مترنحا . جثت تلثم يديه مستغفرة . لحق بها غريب . دفعها بعيدا عن الخفير . انهال

عليها ضربا. خمشت غريب بأظافرها محاولة ابعاده عن الرجل. تفجر الدم من أسنان الخفير . صارت يدى غريب لزجة . كريهة . بشعة . لم تعد تحتمل . سقطت مغشيا عليها .

ـ ٥ ـ

أبوها مصلوب على باب الضريح . أبن اشيخ الرفاعى راكع تحت قدمى الأب ينشج فى صمت . اخوتها يقفون متصلبين فى هلع ملامحهم ميتة . فقط عيونهم هى التى تنطق .

كانت هى مشمرة جلبابها . ناكشة شعرها . مكشرة عن أنيابها . تنط . تقفز . تتناول المسامير من يدى غريب . تدق المسامير فى جسد الأب . تزيد من تسميره باب الضريح .

مع كل دقة يضج غريب بالضحك . يأمرها متغنيا . نشوانا :

- دقى . دقى .

فتضحك لضحكه . تتثنى فى ميوعة . تميل تجاهه .. تتظاهر بانها تناوله المسامير وتناوله قبلة .

وهى تدق المسمار الأخير .. هناك بالتحديد فوق القلب خطرت لها فكرة جعلتها تتشقلب على الأرض فرحة . ثم تعتدل لتناول غريب المطرقة صارخة فى اخوتها :

- دقوا أنتم المسمار . دقوه يا ملاعين . ها .. ها .. ها .. ى ..

بكل الرعب الناطق فى العيون اندفع المسمار يشق الصدر ، والصرخة المكلومة تشق الوجدان :

- يا أبى .. يا أبانا . دمك مسفوك بأيدينا .

ـ ٦ ـ

أفاقت وجيدة من اغمائها مروعة . الدموع غسلت وجهها . جسدها يرتعد بالحمى . رغم نسمات الهواء الندى المشبع برائحة الزرع .

أدارت بصرها فيما حولها . الدنيا ظلام . صرير الحشرات يعلو وينخفض ادركت أنها فى حديقة دارها .

شيئا فشيئا بدأت تسترجع ما مربها . غريب . الخفير . لا تدخل . ضربته . يضربه . يضربه . ضربة . طلقة على حديد الباب . يداه نمويتان : أبوها مصلوب . ابن الشيخ الرفاعى . عيون اخوتها المرعوبة . المسمار يتجه الى القلب . المطرقة ترتفع لتهوى .. ستهوى .. ستهوى ..

عاودتها الحمى .

تحاملت على نفسها .

قامت .

بحثت عيناها عن الخفير . لم تجده . لا بد انه هرب من قبضة غريب .

: ذلك الغريب الكريه .

اتجهت الى البيت . حملتها خطواتها الى حجرة الأم .

فتحت الباب . طارت نفسها شتاتا . على الفراش رقدت امرأة : اتكون هى .. امها ؟

تقلبت المرأة وهى مستغرقة فى ثيابها . أدارت وجهها لتواجه وجيدة . ذهلت . ملأها الغضب . كادت تندفع الى الفراش لترمى النائمة بعيدا . تذكرت : غريب . الجزاء . تماسكت . اغلقت الباب . ابتعدت وهى مطحونة :

: الغجرية اللعينة .

: والدة غريب ؟ ..

: جاءت لتنام فى فراش امى .

: وهو لم يمس منذ رحيلها . ما جرؤت انت على أن تنامى فيه .

: تلك الدنسة .

: خذى حذرك . لا بد أن ابنها هو من أشار عليها بذلك .

: وهل يملك حتى يشير ويأمر ؟

: هو منطق الأقوياء .

: فقط لأننى وحيدة .

: وهو واثق من سيطرته .

: لشد ما أكرهه . حقا أكرهه . لكن أأتطيع أن أكره .؟

: تعودين للتساؤل ؟

: لا لشئ الا لتأكيد مشاعرى . فلقد ادركت تماما أن ذلك الغريب . هو غريب عنى .

: كل الصدق .

– ٧ –

قبل أن تصل باب حجرتها . فتح الباب . أطل من ورائه وجه غريب ، ابتسم لها مرحبا :

- أهلا بحبيبتى .

: يقول الآن حبيبتى . وكان فى الماضى يسمينى وجيدته .

- تفضلى .

: يدعونى وكأنه هو المالك المتصرف .

- ما بالك واقفة لا تدخلين . انها حجرتنا . رأيت أنه من الأوفق الا تدع سبيلا للشائعات . فكرت فى كلامك كثيرا وقررت أن أحسم الموقف .
- تحسم الموقف !!
- فاعلنت زواجنا .
- أعلنت ماذا ؟
- زواجنا . وهاك العقد موقع عليه منك .
: الحقير يكشف عن حقيقة معدنه .
- شهود العقد من أهل القرية . كنت أرجو لو كانوا من أخوتك لكنهم يبغون هلاكك.
- ليتهم يفعلون فهلاكى ارحم من أن أكون زوجة لك .
- وجيدة . ماذا تقولين . أنت زوجتى . وهذا هو العقد . لقد رآه كل واحد من أهل القرية وباركه .
- هذا ما تقوله انت . أما أنا فأقول أنه عقد باطل لأنه مزور . ولأنه أيضا مخالف لإرادتى .
- وجيدة . خطير كلامك هذا الذى تقولين .
- أقوله وأنا فى تمام وعيى وبكامل ارادتى .
- لست بمنأى عن عقابى .
- لا أخافك . بل أنى أصرخ بأعلى صوتى : محال وألف محال يا غريب أن تكون زوجى. غريب أنت عنى . مرفوض انت من كل ذر ة من ذرات وجودى .
علت يده . سقطت على وجه وجيدة .
- كفاك . واعلمى جيدا أننى سأنالك يوم أريد . لا تحسبى انك مستعصية على .

ـ ٨ ـ

: أصرخ يا أبى . بكل كيانى اصرخ .
: حلت الساعة . آن الأوان . تحقق القول . وصرخت ولا من معين .
: ما كنت ادرك أن صرختى ستكون من مرارة الهوان . مهينة أناذليلة .
: عليك أن تقاومى .
: كيف ؟
: اصمدى .
: كيف ؟
بالبحث عن طريق للخلاص .

: كيف ؟

: رد السؤال يجب أن يكون ذلك من داخلك أنت .

: كيف ؟ .. كيف ؟ .. وقد حاق بى الحصار ؟

نجوت وجيدة فى انحاء الدار . فى تلصص راحت ترقب كل شئ . مثلما كانت تفعل كل ليلة . لتعجب وتنكر. فلما فاض بها الألم عادت الى حجرة خادمتها العجوز . حيث تحيا بعد ما استأثر غريب بحجرتها . وقد دارت بها الدنيا .

: محال أن تكون هذه دارنا . ذلك الدنس الذى يلف كل شئ ، ويتحرك مع كل نسمة ، ويستنشق مع كل شهقة ، غريب كل هذا على دارنا . أبى الذى ما رأيته غير عامل أو قارئ للقرآن يجلس مكانه غريب مدمنا للنرجيلة ولا عمل لـه سوى نرجيلته وقطع الحشيش التى يحشويها السجائر.. وأمى . يا لعذابك يا امى بما يحدث على فراشك . تلك اللعينى الكريهة تمتهنه بالإثم كل ليلة . كل شئ صارغريبا . غريبا . حتى بت أنا الغريبة .

سالت عبراتها . تتابعت أمامها الذكريات . ما عادت تطيق حتى النسمة التى تصرالى رئتيها : كل شئ دنس . دنس ..

: ما عاد لى هنا مكان .

- ٩ -

جرت فى الردهة تبغى الفرار . لكن الكلمات اوقفتها . جعلتها تجمد مكانها . تنصت:

- كان مشهدا رائعا : وهو ينظر الى فى احتقار . وأنا اقترب . أدنو منه . هو لا يتحرك . لا يعبأ . مستهينا بى . ملأنى تجاهله ثورة وحقدا فوق حقدى . فقفزت عليه . دفعت بنصل المطواة فى مكان القلب . لم يتألم . لم يطلب الرحمة . ظل واقفا فى شموخ . بصق على كلمات اطفأت مشاعر الإنتصار فى داخلى .

قال : انك لم تقتلنى يا غريب . قتلتنى ابنتى بميلها لك . وما قتلت منى غير أولادى .

- الم تبصق عليه ..؟

- بصقت . وبصقت .

- رائع . رائع .

- لكنه ظل واقفا على قدميه رغم الدم النازف والعينين الميتتين .

- ادفعه . اوقعه ارضا .

- هذا ما فعلت .

- ثم جررته بعد هذا ؟

- على وجهه جررته . كانت مشاعرى رائعة وانا اشعر بالحمى تخمش وجهه . تشوهه . كنت أود لو افعل ها بيدى لكنى لم اجرؤ .
- اخلعت عنه جلبابه ؟ ..
- خلعته . ثم رميت بجثمانه الى تيار النهر .
- كم كنت لهفى لرؤياه بعد أن نضوت ثوبه . هو لم يخضع لأى اغراء . اذلنى . لم يختصنى بلفتة اهتمام رغم كل محاولاتى معه .
- كان هدفى أن تعرفوجيدة . أن يعلموا جميعا . أنه قد مات .
- اقتلها هى ايضا . هى لا تريد أن تخضع لك . آلاف الفتيات يردن ذلك . وهى ترفض . اقتلها .
- اهل القرية سيشكون فى لأنى اشعت بينهم انها قاتلة الأب . واخوتها سيطالبون بالدار والغيط والحظيرة .
- بل هى لك . انت زوجها .
- قرأت وصية الأم . هى تنص على أن تكون الدار والغيط والحظيرة لمن هم من صلبها ؟
- اذن فاغتصبها . ضع البذرة داخلها رغم أنفها وليكن ابنك هو الوريث .
- سأحاول فيالها من فتنة تلك التى ستكون ملك يدى .
- بل افعله الآن . الآن . وسيتم كل شئ تحت بصرى . بالكاد تماسكت . هاجمتها الحمى . لكنها تماسكت . بالكاد وصلت حجرتها . ارتمت بجسدها على الباب تقفله . كل شئ صار واضحا لا يقبل الجدل ..

: غريب هو القاتل ..

: ولا أحد غيره ..

: اخوتى ابرياء . مظلومون هم . أشاع عنهم غريب ما اشاع ليحول الأنظار .

- عليك أن تتماسكى . اذا انهارت نال كل ما يريد . تذكرى أنه نال ما نال بسبب طيبتك.
- اذن فسأواجهه .

: وما جدوى المواجهة ؟ الى جانب أنها قد تدفعه الى مزيد من التسرع .

: ايقتلنى ؟

: بل لقد سعى لقتلك فى كل حين . فلقد سعى لقتلك فى قلوب اخوتك . وسعى ايضا لقتلك فى كل القلوب . ولو استطاع لقتلك فى قلب أبيك .

: والعمل ؟

: اهربى .

: أأهرب ؟

: هذا خير من البقاء .

: والدار والغيط والحظيرة ؟

: هو يعلم أنه لا يملك . انه يغتصب وبصماته لم تدوم عليها . لكن اذا وطأتك بصماته فهذا قمة المحظور .

: لن يستطيعه .

- اذن فسأسرع بالفرار .

- أشعر بأنفاسه تتردد وراء الباب المغلق فكيف اهرب ؟

: اهربى من النافذة .

: الى أين ؟

: دعى خطواتك تقودك .

: بل سأقود خطاى فلقد تأكدت من القاتل وانقشع الضباب .

- ١٠ -

راحت تتلفت حولها فى قلق . تخاف أن يلحق بها غريب . أو يتعرف عليها احد من أهل القرية . وأن تمنت من أعماقها أن يتعرفوا عليها فتستغيث بهم .

تمر على رجال فلا يلتفتون . كأنهم ما عرفوها .

تمر على نساء فينكرن أنها تنتسب اليهن ، أو ينتسبن اليها .

تمر على الأطفال فيتساءلون مندهشين كأنهم يكتشفون عالما غريبا عليهم : من تكون؟

امتلأت مرارة . دون ارادتها انحنت تقبل الأطفال ففروا نافرين ، دموعها تغرق وجهها الشاحب :

- نسيتمونى يا أحبائى . يالهوان ما صار اليه أمرى . قولوا لى . أصدقونى ك أبناء من أنتم ؟

قذفها طفل أعجف بحجر شج رأسها وفر مهللا وهو يسبها مؤكدا :

- طبعا لسنا أبناءك يا عاهرة .

تمزق الفؤاد . الكلمات مزقت الفؤاد . لملمت شتاتها وفرت مذعورة .

: ليس ذنبكم . أنا لا أدينكم ادين هؤلاء الآكلين خيرى . المدركين لقدرى . ويا لضياعهم بنسيانى .

: كنت تفكرين فى الإستغاثة بهم .

: حمدا لله أنى لم أفعل . وحمدا لله أنى فهمت وأدركت ما يحيط بى . ويلك يا غريب . وياويلكم بغريب .

ـ ١١ ـ

تجرجر خطواتها . عجوز هى متهالكة . تقدم بها العمر الف عام . عن بعد يظهر البناء . فتصرخ ضارعة . متوسلة :

ـ أعنى يارب . أشعر أنىلا لن أصل المقام . قواى وهنت وأعيانى الكلال .

فوجئت بخطواتها تتحرر من جذب الأرض . خفيفة هى حتى تكاد تطير . المقام يقترب منها . وهى اقرب اليه . مست الجرح فى رأسها وتألمت ..

: نسيتك يا رفاعى . مات نور الشموع حول مقامك . لكنك لن تردنى كما ردنى الأهل . أنت حبيب الله . والله غفور رحيم .

المقام مهدم . مهمل . الجدران غير مكتملة البناء . كثير من طوبها مرفوع من مكانه.

: حتى مقامك يارفاعى امتهن .

عبرت من احدى الفتحات الى داخل المقام بعد ما خلعت نعليها فى الخارج . اندفعت الى الضريح بكسوته وهى تجهش فى انهيار متمتمة :

- مهانـة أنـا يـا إلهى .. طريدة منسية من الجميـع . اغفـر لـى يـا رب فأنـا لا أبرئ نفسى من مسئولية ما كان .
- شـعرت بيـد تلمس بالحنـان كتفهـا . امـتلأت بـاليقين مـن أنهـا امهـا فهـا هـى ذى زفراتها تمس رقبتها من الخلف وهى تهمس :
- اقرئى الفاتحة يا وجيدة وصلى .
- سأفعل يا أمى . سأفعل .
- تماسكى يا ابنتى فلقد استعدت الطريق وصححت الخطى .
- ولن احيد يا أمى . لن أحيد .. اشعر بأنى أولد من جديد وأقسم أنى لن أحيد .

الفصل الخامس

اللعنة تصيب كل شئ

ـ ١ ـ

شكا فلاح من خداع السمع . رفض فى اصرار ما تشى به أذناه :

- أهون أن أكون مجنونا من أن أصدق ما أسمع .

ذهب فلاح آخر الى حلاق القرية يطلب علاجه لأذنيه فهما تصفران بضحكات كلما من قريبا من دار وجيدة .

فلاح ثالث ظل يطارد بساق قمح جافة ما توهم أنه برغوث تسلل الى طبلة ودنه حتى اتلفها فما عاد يسمع .

كثرت الشكوى . تعددت . بدأت العقول تتدبر ما تسمعه الآذان . اتجهت جماعات من اهل القرية الى دار وجيدة وكلها اصرار على اكتشاف الحقيقة : الآذان تنصت وهى مرهقة . تتسمع . العيون تزداد اتساعا فى دهشة . القلوب يعتصرها حزن قاتم الآذان تعود للأرهاف فتتأكد :

- يرحم الله أيام الأم .
- وأيام الأب .
- ماسمعنا فى حياتها مثل هذا العهر .
- كانت للدار قدسيتها .
- لكن ها هى ذى تحول الدار لماخور .
- الضحكات الخليعة تلطع .
- النداءات البذيئة تزلزل الجدران .
- ودم الأب ما زال دافئا .
- اكيد هى قاتلة ابيها كما قال غريب .
- ليت الأب قتلها قل أن تقتله .
- هى سبقته . وهو ما كان ليقتلها ز
- وغريب الملعون رغم كل تحمسه لإتهامها بالعقوق . يسرع بزواجها .
- ويدور عليناعارضا وثيقة زواجهما ووجهه يصرخ بالإنتصار .
- الذنب ليس ذنب غريب .
- ذنبها هى العاهرة .
- هو شهم ستر عارها .

- حكى لى مرة أنه كان يضاجعها من وراء ظهر الأب .
- عشيقته كانت .
- والأب لا يدرى بما كان يتم فى الخفاء ويرفض زواجهما .
- لو عرف الحقيقة لقتلهما معا .
- او زوجها له .
- محال أن يوافق وهو كان يرفض
- اعتادأن قال لا ، أن لا تكون نعم بحال من الأحوال .
- أكيد كان سيقتلهما .
- لذا خافت .
- ملأها الرعب فقتلته .
- هذا ما أكده غريب .
- ولماذا لا يكون غريب شريكها ؟
- يارجل لا تكن ظالما .
- غريب طيب بذل الكثير من الجهد ليحميها .
- او ليسيطر على ما تملك.
- لا تقل هذا يا عبد الحق .
- أكيد عبد الحق غيران .
- ولماذا لا لأغير ..؟
- ولماذا تغير ؟
- لأن من تزوج وجيدة غريب عهنا . ولأنه لو أراد أن يصون للدار قدسيتها لفعل.
- أسكت يا عبد الحق .
- لكنه لا يريد .
- لار يمسها يا رجل .
- .. يريد أن يصل بوجيدة الى قاع الضياع ليرث كل شئ .
- ما تقوله خطير يا عبد الحق ..
- مستعد أنا لتحمل تبعاته . فلقد أكده لى اصغر الأخوة بعد ما كف عن صراخه وصار يتدبر الأمور . والأيام قادرة بما ستجئ به من أحداث على أن تمسح الضباب عن عيونكم .

عاد طفل صغير الى صدر أمه مرتعشا . ارتجفت كلماته الخضراء بالخوف واصفة رجلا رآه يحمل بندقية على كتفه ويرطن بأغنيةجوفاء . رددت الأم ما سمعت لجاراتها فخبطن صدورهن ولم يعلقن وان ظل الطفل يهذى بما رأى طوال فترة نوم .

أكد عبد الحق ما قاله الطفل وأضاف انه رآه منذ يومين اشاح أهل القرية وقالوا متأففين :

- كفاك لغوا بما ليس لك به علم يا عبد الحق ..

بعدها حلقت خيالات الرجال الغرباء فى الرؤوس وعبد الحق يقسم مغلظا على صدق ما قال . زجروه :

- دعنا نعش فى سلام لنربى أطفالها .

ـ ٣ ـ

- لن يطول بهم الإختفاء عن العيون وغدا سترون .

.. ظهر الرجال الأغراب . صارت الكلمات وقعا يتحرك بين أزقة القرية . على ظهورهم بنادقهم . فى أيديهم عصى غليظة . فى وجوههم تجهم . عيونهم تراقب كل حركة وتحصى كل إيماءة . أفواههم مزمومة .. ملتوية بالصمت . تحرك الخوف فى أعماق الجميع .. جأر عبد الحق بما يقطع احشاءه .

- سنظل مكبلين بالخوف الى أن يستبيحوا نساءنا . أليس من حقكم أن تسألوا ؟
- حقا لنا أن نسأل .
- ولو من هم ..؟
- قد يكونون لصوصا . قتلة .
- ينوون بالقرية الخراب .
- هم كذلك لأنه بلديات غريب .. رأيته معهم .
- دون غضب أو اتهام .
- حقا يجب أن نسأل بلا انفعال .
- بهدوء وتعقل .
- الموقف لا يحتمل غير هذا .
- تخافون يا أهل بلدنا ؟
- يا عبد الحق الله يهديك . لا طاقة لنا بهم . لنا أطفال نربيهم . الله يهديك .
- أئن تريدون لى الهدى ؟
- نعم .

- اتدفعون ثمن سكوتى ؟؟
- اطلب وانكتم .
- يذهب مأذونالبلد للدار الكبيرة ويسأل وجيدة عن ضيوفنا الذين لم نعزمهم .
- سهلة ، نكلف المأذون بالذهاب الى الدار الكبيرة .

اعترض المأذون . مستعيذا بالله من الشيطان الرجيم ومن فسق سكان الدار .

- كيف لواحد مثلى أن يخوض فى مثل تلك الأماكن ..

ألح عليه الموجودون . استحلفوه بكل غال. ركب رأسه اصر على موقفه ولزم الصمت فصمتوا ..

: مستحيل أن أرى وجهها وقد سمحت لمأذون غيرى أن يعقد قرانها . وأنا ما عقد قران فى القرية الا وكنت موثقة .

: قد تكون دعوتهم خيرا لك .

: خير ؟

: لتفتح باب الود وتصل ما انقطع .

:كيف ؟

: عاتبها على فعلتها . طيبة هى ستتعاطف مع عتابك .

: خاصة وأنى سأكون امامها ممثلا للقرية كلها .

: وتنقد المعلوم .

: وأى معلوم سيكون ... رسوم العقد وأتعابى وثمن مصالحتى .

: فلم تقول لا .

: أنا ؟

: أنسيت . انظر فى وجوههم وقد خذلتهم .

: أنا آخذ أهلى . محال ؟؟

قطع المأذون حبل اليأس والصمت . نهض قائلا فى عزم فاركا كفيه :

- من أجل عيونكم يا أهل بلدنا اخوض البحار . سأذهب للدار الكبيرة وآتيكم بالنبأ اليقين ..

– ٤ –

غاب المأذون داخل الدار الكبيرة . تململت جماعات الفلاحين فى وقفتها بالقلق .

بدأت فكرة الإنصراف تراودهم . لكن المأذون ظهر بغتة. تلاحمت مع خروجه من الباب الحديدى المجموعات الصغيرة فى كتلة واحدة تحيط به مترقبة .

تطلع المأذون اليهم متوجسا . نظراته قلقة . يده اليمنى مكورة داخل جيب جلبابه .

تمتم اكثر الوقوف :

- منظر المأذون لا يبشر بخير .

سأله عبد الحق وهو يضع يده فوق كتفه منبها :

- أقابلتها ؟
- وجيدة . ابدا .
- اذن لم تجد جوابا للسؤال .. ؟
- قابلت غريب .
- ثم ؟
- عاتبته .
- عاتبته .
- لم نرسلك لتعاتب .
- أقصد سألته .
- ولا من جواب فصاحبه الشأن لم تقابلك ؟
- بل كان الرد حاضرا على طرف لسانه .
- فسر سر مجئ الأغراب ؟
- قال : وجيدة طلبت منه ذلك .
- تريدهم لحمايتها .
- حمايتها ممن يا مأذون بلدنا ؟
- من أمثالك يا سيد عبد الحق .
- من أمثالى أنا ؟
- علمت باتصالك بأخيها .. وتآمركما عليها .
- تآمرنا ..؟
- يري أخوتها قتلها أخذا بثأر الأب .
- كذب ..
- فكان لابد لها من حماية .
- نحميها نحن ..
- حاميها حراميها يا عبد الحق ..

- والله أن الحرامى هو أنت يا مأذون الكلاب . لقد رشاك غريب ياخرب الذمة . ذقنك صارت مرتعا لقمل الأغراب الذى يرعش شفتيك بالكلمات .
- سامحك الله ..
- اسكت يا عبد الحق ..
- امسك لسانك عن التلوى فانه سبب ما نحن فيه ..
- بل غريب سببه .. حشا رأس وجيدة بالأكاذيب عن اخوتها .
- ياعبد الحق نريد أن نعيش فى سلام فلا تفتح سبل الخصومة بيننا وبين غريب .
- هو زوج وجيدة وله أن يتصرف حسبما يرى .
- بل وجيدة مظلومة بتصرفاته .
- ياعبد الحق قلنا لك مائة مرة لنا أطفال يجب أن نربيهم .
- فلا تحمل اللقمة التى تلوكها مرارة اقوى من مرارتها .
- ان سكتم فسلوككم غريب .
- نقطنا بسكوتك .
- احرى بك أن تهتم بنفسك يا عبد الحق .
- اما يكفيك ما صارت اليه امورك ؟
- مأساتى أنى لا أضع مصالحى فى أول الصف ، بل أقف دائما فى المؤخرة . لذا اراكم جميعا . أما أنتم فمصالح كل فرد منكم فى المقدمة وظهره للجميع .
- هى سنة الحياة يا عبد الخالق .
- بل شريعة الغاب .
- سمها ما شئت ودعنا نحى فى سلام .

هز عبد الحق كتفيه يائسا . سار مبتعدا واحساسه اكيد بان خطواته تبتعد به بحيث يستحيل عليه أن يعود .

- ٥ -

كان صوت القارئ يعلو فى " الصابية " مرتلا آيات الذكر الحكيم . بينما جلس الفلاحون على المقاعد يهزون رؤوسهم كأنما ينصتون . بينما ألسنتهم تمضغ الكلمات.

- كان لا بد أن يموت .
- شنق المسكين نفسه .

- وجده الأغراب وقد أحاط رقبته بأغصان شجرة اللبلاب العتيقة وتدلى جسده يتأرجح فى الهواء .
- استرح من حياة الكفاف التى كان يعيشها .
- ورغم سلاطة لسانه . وكل ماافترى به على غريب .
- قرر غريب أن يكفن بالحرير ويدفن على نفقته ويقام له مأتم ثلاث ليال .
- غريب طيب القلب .
- ما رأينا مثله ما يسئ .
- ليت عبد الحق يدرك ما يحدث الآن .
- إنن لاعترف بظلمه لغريب .
- محال أن يعترف . فلو صحا من موتته لصرخ : غريب يكفننى بالشماتة .

ضج الحاضرون بالضحك ، لم يتمالكوا انفسهم .. لكن سرعان ما انتبهوا الى القارئ وقد شدد على مخارج الكلمات . فابتلعوا ما تبقى فوق الأفواه من ابتسام ، وعلى حبال الحناجر من اهتزاز . ومصمصوا الشفاة وهزوا الرؤوس فى اتعاظ .

ـ ٦ ـ

انتظر اهل القرية ان تحضر وجيدة العزاء ..

- إنها الليلة الأخيرة للمأتم .
- وهى لم تأتى على غيرها ما عودتنا ..
- المأذون ارسلناه الى الدار الكبيرة فلم تستقبله .
- تزوج شبابنا فما ارسلت لعرائسهم الطرح البيضاء والعطر .
- لم نلحظ هذا او ننتبه اليه .
- لعلها مريضة .
- غريب كان هنا ولم يلمح او يصرح بشئ من هذا .
- لعلها خجلة من أفعالها ؟
- من يدرى
- عبد الحق كان قلقا عليها .. سألنى : كيف يزورها المأذون ولا تستقبله؟
- خبط على دارى فى مسائه الأخير .. وقال : قل لأهل بلدنا افتكروا وجيدة .وقلت لكم .
- لكننا وجدناه مشنوقا فى الصباح

تململ صبى جلس مستندا برأسه على كتف أبيه . ربت الأب على ظهره لينام لكن الصبى اعتدل. فوجئ الأب بعينيه المتألقتين بلا أثر لنعاس :

- احملك كل هذا الوقت ليستغرقك النوم وانت يقظان .
- سمعتكم تتكلمون عن وجيدة . أنا رأيتها .
- متى ؟
- لا أذكر .
- أين ؟
- لا أذكر . كانت حزينة ، خائفة ، تتلفت حولها كأنها مطاردة .
- وبعد ؟
- سبها احدنا . قذفها الممروض بحجر شج رأسها . لم نكن نعرفها .
- اذن فهى مريضة داخل دارها ؟
- لم ترجع للدار . هربت مبتعدة تجاه مقام الشيخ الرفاعى من هو الشيخ الرفاعى هذا يا أبى ؟
- ثم يا ولد . انت تخرف .
- ابدا يا أبى . أنا رأيتها .

ـ ٧ ـ

- وجيدة اذن ليست فى دارها ؟
- غريب هو الموجود .
- يسير الأمور .
- ولايحاول أو يحيطنا بشئ .
- ويغلف الضباب حياتنا .

قال المأذون ويده تضم المعطف على بدنه ليزيد دفئه ، ونظراته ترصد أحد الأغراب يقف منصتا :

- غريب رجل ليس له نظير بين الرجال . كريم جواد . شهم .
- معك حق يا مأذوننا .
- لا ندرى كيف كانت تمضى بنا الحياة بدونه .
- ولكن تلك الضحكات ؟
- تلك الذى سمعناه فانكرناه وما زلنا نستنكره .
- هى اذن ام غريب .

زاد اقتراب الغريب من ظهورهم . صارت ما سورة بندقيته تلسع الآصان البردانة:

- تضحك . وتطرب ويحق لها فابنها زينة الرجال .
- الله يخليك يا غريب .
- سلام عليكم . سألجأ الى دارى فالليلة بردها لا يطاق .

دفع القروى يديه فى فتحتى جلبابه وضمها على جسده الهزيل وانطلق يهرول ..

: الله يرحم ايامك يا عبد الحق .

ـ ٨ ـ

قال غريب :

لم ارد أن اخبركم فأزيد أحزانكم بافعالها . وحلت هى هاربة . عرفت أنها تبحث عن ابن الشيخ الرفاعى الذى تعشقه .

- ابن الشيخ الرفاعى عاشق متيم ولأبيه مقام فى بلدنا ؟
- الحمد لله أننا ماعدنا نتردد عليه .
- بل لن تقام فيه احتفالات العيد .
- سنجئ اليك يا غريب .
- انت الخير والبركة .
- ما عاد لنا من دنيانا غيرك .

ـ ٩ ـ

مضت أيام الشتاء بصقيعها القارس . كان شتاء قاسيا جعل أوراق البرسيم الخضراء تتشبث بالأرض فلا تجرؤ على أن ترفع رأسها .. بينما عيدان القمح ضمرت وقد اصفر لونها وكأنها نضجت بلا سنابل :

- حرمت البهائم من أثرى أيام غذائها .
- جف بدنها .
- وحينما لاح الأمل ..
- وأقبل الربيع .
- فوجئنا به ربيعا ساخنا وكأنه أبواب جهنم .
- هجمت الدودة تلتهم ما تبقى على وجه الأرض من نبت .
- حتى الترعة قل ماؤها حتى كاد يغيض .

تأزم الموقف . صار هناك خيار بين أن تشرب الدواب أو يشرب أهل القرية . قال غريب :

- الدواب أولا . من خيرها نستطيع شراء الطعام .

- ١٠ -

جف اللبن فى اثداء الأمهات . بكى الأطفال وهم يمتصون الجلد الجاف فلا يمدهم بالقوت رغم كل ما فى افئدة الأمهات من لهفة وضنى . ارتفع الصراخ . اشتد . تلاحقت الشهقات . استطالت فانقطع الهواء عن الصدور . توقفت القلوب الصغيرة . تساقطت عبرات ملتاعة صامته . بعد ما خذلت الحناجر الجافة الأمهات فلم يقوين على الصراخ بلوعتهن :

- الأيام تمر .
- كل شئ يجف ويموت .
- حتى أجسادنا صارت جافة كعيدان القش .
- كأنما هى لعنة حطت يدها على كل شئ .
- والعمل ؟
- غريب يقول لا بأس . سنحفر بئرا تفيض بالماء .
- الله يخليك يا غريب .

- ١١ -

تدفق الرجال على الدار الكبيرة يحملون الفئوس والمقاطف . أطل غريب من الشرفة .صاح بهم :

- احفروا هناك .

أشار بيده الى المكان . أسرعت الجموع حيث اشار . غاصت الفئوس فى الأرض الجافة تشقها . رفعت النسوة التراب فى المقاطف على الأكتاف والرؤوس . الجميع يعملون فى نشاط ويلهثون بالأمل . كلما نوح طفل اسكتته بالقاف العيون .

- لحظات ويتفجر الماء .

انتهت طبقة الطمى . ما عادت الفئوس ترتطم بغير الحجارة . ما عادت المقاطف تكوم غيرها . بدأ الكلال ينتاب الرجال . تهاونت الأذرع فى ارتفاعها . دميت اصابع النسوة . همس فلاح عجوز :

- ايتفجر الماء من الصخر ولسنا فى زمن المعجزات ؟

صرخ غريب آمرا :

- احفروا .

تمتم الفلاح العجوز وقد امتلأ ياسا وقتامة :

- نحن لا نحفر . نحن نهدم مبان مدينة قديمة .
- استمروا يا رجال . فى هدمها الخلاص .

هز الفلاح العجوز كتفيه باستخفاف . قال ساخرا :

- لن اخسر شيئا من الإستمرار فلعلى حافر قبرى .

زاد نشاط الفلاح العجوز . اضحت ضربات فأسه اشد حتى من تلك التى بدأ بها الحفر املا فى وجود الماء .

ـ ١٢ ـ

الأيام تمر . .

الرمال تزحف على الأرض السوداء فتحتويها .

تتسع رقعة الخرابة فالدور تفقد سكانها .

بقايا الرجال فى ذات المكان . ينحتون الصخر . يزداد العمق يسقط الفلاح العجوز ميتا فتحتويه الحفرة التى حفرها .

ما عادت فى القرية قطرة ماء .

فى المساء يسرع الجميع الى الترعة . يحفرون قاعها بأظافرهم الى أن يستشعروا الرطوبة فينكفئوا على الطين يقتطعونه بالأسنان ويمضغون الكلمات :

- فى الصباح ينفجر الماء ..
- غريب قال .
- غريب لا يكذب .

الفصل السادس

امطرت السماء .. السماء تمطر

ـ ١ ـ

القرية هى القرية التى هجرها . الناس هم الناس ولكن ..

: أين هى ؟

يبحث بعينيه . ينقب عنها بينهم . لا يجد لها أثرا . تنتابه الحيرة . يرن صوت انسان:

- وجيدة راحت وراحت ايامها . الزمن للغراب .
- قولك من درب المحال .
- الا تصدق . اذن انظر .
- ينظر . يرى غرابا كالح اللون فى الأفق . يتساءل دهشا :
- أهو ؟
- عليك أن ترى دون سؤال ـ ببصرك وبصيرتك سندرك الجواب .

يبصر الناس يتجمعون . تتكاثر اعدادهم . عيونهم معلقة بالغراب .. يهللون لنعيقه . يصفقون . يهتفون محيين . الغراب يضرب الهواء بجناحيه . يحوف منتشيا . يزداد صخب الناس لكل حركة يأتيها . يصبحون فى فوضى مجنونة . يزداد الغراب تخبطا . تزداد نشوة الجماهير حتى تفقد كل سيطرة على الفكر والبدن . هنا ينقض الغراب من عليائه . مع اقترابه يتحول الى كتلة هلامية سوداء بشعة . تنفتح منها طاقة كالفم لكنها تنفث لهبا يحرق الحشد . يشتد الصراخ . يرتفع حتى تحول لآهة ممطوطة موجوعة .

بلا وعى . فى رغبة مجنونة للنجاة . يدوس الأخ أخاه . تخفى الأم جسدها خلف اشلاء وليدها . الغراب . الكتلة الهلامية لا ترحم .

: ارحمهم يارب . انك سبحانك الغفور الرحيم .

: ليرحموا هم انفسهم فى نسيانى .

- يا اخوتى تذكروا من خلقكم . ارفعوا الرؤوس من ركام الهوان . علقوا العيون بالسماء .

ما أن التقطت الآذان الكلمات حتى ارتفعت الأذرع نحو السماء مستنجاة . مالت الرؤوس للخلف . تفتحت الطاقات السوداء على السماء فاذا الوجوه بلا عيون .

آهة . ما سمع مثلها طيلة حياته . تقبت جدار الوجود . معها ظهرت وجيدة بين الجموع تدجرى بكل قوتها تجاهه . توقفت أمامه تلهث . شعثاء . دامية الأطراف بيديها صدره فتزلزل كيانه :

- لماذا تركتهم . لماذا تركتهم . الذنب ذنبك . الذنب ذنبك .

ـ ٢ ـ

انتفض ابن الشيخ الرفاعى من نومته جالسا . أفاق وقد صاق صدره فصارت ضلوعه تنخس لحمه وكأنه سكاكين . تحسس مكان أن ضربته وجيدة . فوجئ بيده ترتد اليه وقد غمست فى الدم . فزع . كشف عن صدره . بحث عن مكان الجرح. وجد جلده سليما من أى خدش . استعاذ بالله من الشيطان . تلفت حواليه متوقعا أن يجد الوجوه المجوفة العيون تحيط به . لم يجد أحدا . استعاذ بالله ثانية من الشيطان الرجيم وتهاوى بدنه منهكا فوق الفراش .

ـ ٣ ـ

عاودته الرؤيا ذاتها . طورد بالإتهام . انتفض يقظان يتوجع .

: الذنب ذنبى . أهو ذنبى ؟

: هو ذنبك بحق يا ابن الشيخ . دمها عالق ببياض ثوبك .

: فيم أذنبت . أريد أن أعرف فيم أذنبت ؟

: فررت . رأيت الضلال فوليت الأدبار .

: لا مكان للطهر حيث يكون الدنس

: بل رسالتك أن تكون هناك .

: امكانى بين الدنس ؟

: لتطهر النفوس الضالة . لتظهر الحق .

: لقد مات كل حق

: أن تحيى كلمة الله .

: ذكرالله مات بموت ضمائرهم .

: الله حى لايموت .

: هو حى فى ضمائر الشرفاء

: هو ايضا حى فى ضمائر غير الشرفاء .

: كيف ؟

: هم مرضى أو مغرر بهم . يحتاجون سماع كلمة الحق التى تحجب عن أذانهم .

: علا صوت الضلال فطمس كل صوت .

: لو حاولت لأسكت كل صوت .

: عندهم الكثير من الكلام الأجوف .

: عند الله ما هو أثبت وأعز

: الله اكبر

: لأنه محبة . لكونه خيرا . هو عدل .

: سبحانه . شملت رحمته كل شئ.

: احمل رحمته سبحانه اليهم .

: كيف ؟

: عد الى القرية .

: أأعود وقد خرجت بلا وداع ؟

: عد اليهم .

: لقد نسونى . تجاهلوا وجودى أيام أن كنت بينهم .

: دعهم يتعرفون عليك من جديد .

: كلماتى قد لا تعجبهم .

: من كتابه المنزل اقرأ .

: اخاف أن يرجموني .

: عاني في سبيل الله من هم خير منك وأكرم منزلة .

: كل شئ يهون في سبيل الله .

: اذن فعلى بركة الله م . اجعل القرية قبلتك ولا تتحول .

ـ ٤ ـ

- يا أهلي ماذا أراكم فاعلين ؟ .
- من ؟
- ابن الشيخ الرفاعي ؟
- هو فعلا صوته .
- حبيب وجيدة عاد بحثا عن الأرث .
- لاشئ لك .
- لاشئ لها .
- اذهب عنا
- لو تخطيت الترعة فسنكسر ساقك
- يا أهلي أسألكم ماذا تفعلون ؟
- لا جواب .
- اسأله هو .
- هو مالك كل شئ فهو زوجها الشرعي
- حرام عليكم . انكم تحرثون البحر .
- هو لا يدلنا الا على مافيه سبيل خيرنا .
- قال احفروا هنا .
- ونحن نحفر .
- قال سينفجر الماء
- وسينفجر الماء
- قال.قال. من القائل ؟
- غريب قال.
- من يكون غريبكم هذا
- لاشأن لك

- صفوه لى
- لم تتأمله
- أين يسكن ؟
- هو معنا دائما حينما نحفر
- أين ؟
- هنا .
- أعميت عيناك فما عدت ترى ؟
- لا أرى أحدا حولى غيركم
- ماذا تقول ؟
- غريب هنا

صوته ملأآذاننا .

- سمعته منذ لحظة يصرخ : شددوا الضربات
- يا اخوتىما أرى غريبا بينكم غير ضلالكم .
- ولا ترى الأغراب أيضا ؟
- ولا الأغراب .
- غريب هذا الذى تقول !
- لا عليكم يا اخوتى . ارفعوا الرؤوس وانظروا .

ارتخت سواعد الرجال بوهنها . رفعوا الرؤوس باحثين عن غريب . فوجئ بالعيون وقد اصابها الكلال . حفر سوداء هى وسط وجوه ضامرة .

ملأه الحزن . اندفع يعبر الترعة الجافة. أصبح بينهم . فؤاده يتمزق :

- تؤمرون فتطيعون . أفلا تسألون ؟
- كان دائما معنا .
- كلماته طيبة . حلوة كالشهد .
- قال احفروا وسينفجر الماء.
- وهل تفجر الماء ؟
- لا ندرى .
- ايديكم فوق الصخر . . السنتكم اثقلها العطش ولا تدرون .
- هو قال سينفجر الماء
- وأنتم ؟

- لم نفكر .
- أسألوه
- وفيم سيجدى السؤال ؟
- سيسقط نقاب الزيف
- كيف
- كنتم ستدركون أن غريبا فر .
- هو معنا . فقط نحن لا نراه .
- يا أخوتى غريب فر .. معه رحل الأغراب .
- اتقسم بالله ؟
- اقسم بالله أنه ترك القرية . رأيته كغراب البين وحوله ورجال اغراب يحملون اشياء وأشياء .
- نهبوا بيوتنا اذن ؟
- كان يسبكم ويسب فقركم .
- لنلحق بهم .
- لنقتلهم .
- كأن هذا اجدى وهو بينكم .
- انتركهم لنجتر عارنا وقوفا .
- خلاصكم يا اخوتى ليس فى قتل غريب .
- اين اذن السبيل ؟
- فى اصلاح ما كان .
- قل لنا يا ابن الشيخ .
- هل احضرت وجيدة معك .
- معى أنا ؟
- كانت ايامها خيرا
- حين رحلت تركتها فى دارها بينكم انتم ؟
- اذن هى لم تفر لتلحق بك ؟
- اقسم بالله ثلاثا أنى ما رأيت وجيدة منذ رحلت الا فى منامى وهى تصرخ بى أن أعود لانقذكم مما انتم فيه .
- ياويلنا بما قلنا .

- خدعنا غريب
- قال انها عشيقتك
- وصدقتموه ؟
- الحق نقول . صدقناه
- امن الطهرينبت العهر ؟
- لم نفكر فى هذا
- انسقنا وراء عسف الإتهام
- ظلمنا وجيدة ..
- فكنتم انفسكم تظلمون .

ـ ٥ ـ

: حمدا لله ان عدت .
: تحمدالله الآن . وكنت لا تكاد تقطع الشك باليقين .
: كانوا فى ضياع . أعناقهم كانت ستظل تلاحقنى حتى مدخل القبر .
: وتلك البقعة على الثوب ؟
: تلك الجزاء من وجيدة .
: أنى باحث عنها من غدى .
: بل منذ اللحظة .
: والماء ؟
: انهض
: الرجال متعبون والماء فى قاع الترعة .
: انهض يا ابن الشيخ من قعدتك فسترى عجبا ..

ـ ٦ ـ

سار ابن الشيخ الرفاعى . خطواته تقوده . قوة خفية توجه .
: الى أين ؟ .
: الى حيث تجد من ظلمت بأفعالكم . وما ظلمت أحدا .
: وجيدة ؟
: هى تنتظر .
: بين يديها الخلاص . بدموع عينيها لو طلبتم السقيا تسقيكم .
: الرجال عرفوا بذنبهم .

: الأولى أن يعرف الصغار . فى معرفتهم بها كفارة عما كان .

: أو بهذا يذهب القهر ؟

: وبه وحده يتحول أجداب الأرض خضارا . وجفاف الأنعام رخاء. وخراب الدار عمارا . وما كان لغريب أن يطأ بقدمه .

ـ ٧ ـ

واصل ابن الشيخ الرفاعى سيره . انتبه الى أنه يسلك الطريق المؤدية الى مقام ابيه . تسارعت دقات قلبه . اسرعت خطواته خلف المنازل المهدمة وراء ظهره .

: ياله من خراب ذلك الذى حاق بهم .

: وهاك الخير يا ابن الشيخ .

نظر . بهت . توقف مكانه مشدوها . هو أمام روض من رياض الجنة . مقام أبيه محاط بالزرع والشجر المثقل بالثمر ..

: تقدم يا ابن الشيخ . اتخاف مقام ابيك ؟

عادت القوة الخفية تحرك ساقيه . تقدم كالنائم . اخترق الزرع الى باب المقام . خلع نعليه . ردد اسم الله . تخطى الطرقة الى الضريح . ملأت رائحة البخر والشمع المحترق أنفه، ابصرها جالسه قبالة الضريح . رافعة يديها داعية . دون أن تلتفت اليه دعته :

- تقدم يا ابن الشيخ .
- انه انا فعلا ..
- كنت انتظر مجيئك منذ شهور
- وهانذا قد عدت
- اخوتى هناك . فى الجانب الآخر من الغيط
- سأسلم عليهم
- هم نادمون . يستشعرون الذنب . يعتقدون أنهم سبب رحيلك . فلا تزد عذابهم .
- بل أنا من يستأهل العذاب
- حسنا . اذهب اليهم وعد لتحدثنى عنهم
- احدثك عن اخوتك وهم جوارك
- بل لتحدثنى عن اخوتى الذين هناك
- الله معهم .هم فى كرب شديد
- بل أنا من يعانى الهم من اجلهم
- هكذا انت دائما

- اذهب لأخوتى . امسح عنهم همومهم وعد سريعا .

ـ ٨ ـ

عندما رجع ابن الشيخ . قالت له وجيدة :

- ستذهب اليهم .
- بل لقد جاءوا هم . يبدو انهم تبعونى دون أن أشعر .
- أين ؟
- يقفون عن كثب
- اذن فسأخرج للقياهم

نهضت وقد تهلل وجهها . هرولت خارجة وهو بجانبها يتابع خطوها . وما أن قاربوا مكان الجموع حتى هتفت مرحبة :

- أهلا بكم .

وقف الرجال والنساء مذهولين . صمت مطبق وصفرة فوق صفرة علت وجوههم .

اعادت وجيدة ترحيبها . تصاعدت تنهيدة حركت تموجات الصوت الثقيل . تعثر اللسان :

- ظلمناك يا وجيدة ..
- اترحبين بنا ؟
- ونحن من ظلمناك
- تخلينا عنك
- اتهمناك
- عمى منا البصر وافتقدنا نور البصير .
- سخر منا غريب فصدقناه
- وصفناك بما أنت بريئة منه .
- اسانا اليك ولم ندرك اننا انما نسئ الى انفسنا
- اقسمنا على أن نخاصم الحق
- فقصرت خطواتنا عن ادراك المقام
- وانت هنا تكدحين
- من أجلكم كنت اكدح
- بل محرمة علينا خيراتك

- بل هى لكم . من أجلكم غرست وسقيت ودعوت الله أن ينضج الثمر . من أجلكم بكيت وصليت ودعوت الله ان يخفف عنكم . من أجلكم - ايضا - هربت من غريب كى أحافظ على نقائى وطهرى .
- ياطاهرة
- أتذكريننا وقد نسيناك ؟
- انتم دائما فى الوجدان . لكم جفانى النوم من أجل ما كنتم فيه
- وسنبقى فيه
- هو ما نستحق
- افلا تريدون لى غير العذاب .
- خسئنا ان كنا بعد اليوم راجين لك غير السعادة
- سعادتى فى اسعادكم
- ياويلنا بما قدمنا . ويالهواننا بما جنينا
- اتبعونى جميعا الى داخل المقام

ـ ٩ ـ

صلى الرجال .. .

صلت النسوة ..

الأطفال حاكوا الجميع فى الركوع والسجود .

تعالت الدعوات . اجهش الرجال بالبكاء . انزاح قهرموت العيال من فوق صدور الأمهات .

جاء اخوة وجيدة بصوانى الطعام . رغم طولالحرمان لم تزدرد الأفواه اللقمات لا بمشقة . فقد كانت تخنق الجميع غصة .

ـ ١٠ ـ

: يا الهى اغفر لى .

: تطلب المغفرة لنفسك فقط .

: أشعر كأنى المذنب الوحيد . ذنبى عظيم .

: أن كتمت قولة الحق للأخوة ؟

: ولأهل القرية من بعدهم وكتمان قول الحق كفر بالله مستتر .

: دعك من العيش فى الماضى . انظر حولك وردد السؤال :

الى متى تصمد خيرا هذه الأرض المحدودة امام هذه الأفواه ؟

: فرج الله قريب . اشعر بهذا فيما يشبه اليقين .

ـ ١١ ـ

بعيدا عن الطعام . فى ركن قصى جلس صبى ينحب . اقترب منه ابن الشيخ . ربت على رأسه :

- فيم بكاؤك يا ولدى ؟
- قلت لوجيدة أنا من قذفك بحجر يوم هروبك من غريب
- الإعتراف بالحق فضيلة
- كنت ارجو أن تضربنى أو تزجرنى ولكنها لم تفعل
- هكذا هى
- تناولت يدى هذه . ذات اليد الملعونة التى كرهتها لأنها قذفتها بحجر وقبلتها
- قابلت الإساءة بالحسنة
- كان أهون على لو قطعت يدى
- هى تعطيك يدها ولا ترضى أن تراك مبتور الذراع
- سأقطعها أنا .
- بل أحبب يدك وراعها فبها تستطيع أن تعبر بالعمل عن العرفان.

ـ ١٢ ـ

خرج ابن الشيخ الى الخلاء . رفع نظره الى السماء وقد زينتها النجوم والغيوم . راح فى غيبوبة المناجاة .

: يارب الخير كل الخيرفيما سمعت من اعتراف بالذنب .

: وخيرا سترى

: اخيرا مما رأيت من خير سأرى ؟

: انظر الى جلبابك .

: جلبابى ابيض

: وأثارالدم ؟

: يا الهى لقد انمحت

: فقط ؟

: جلبابى مبلل

: الم تلحظ هذا ؟

: استغرقتك روعة اللحظة .

: والآن افيق

: لتترك أن ..

تطلعت عيناه للسماء غير مصدق . تأكد له صدق الهاتف . هتف بالفرحة :

- يا اخوتى .امطرت السماء . السماء تمطر .

ارتفعت صيحات التكبير . اسرع الأطفال الى وجيدة . وجذبوها معهم الى الخارج . احاطوا بها صائحين تحت حبات المطر . راحوا يتقافزون حولها . وهى سعيدة بهم . ترقرق الدمع فى عينى ابن الشيخ . تمتم لنفسه وهو يحتضن الأطفال بين جفنيه ..

: غدا سافتح الكتاب . سأعلمهم أول كلمة . ستكون : وجيدة .

ثم الكلمة الثانية : نحن . والثالثة : أبناء . وحينما ينطقون الجملة فستكون : نحن أبناء وجيدة . أما الجملة الثانية فستكون : نحن نحب وجيدة .

وهكذا سيتعلمون الثالثة : الله يحفظ وجيدة . لأننا أحباب الله